دروس وعظات وعبر في سورة

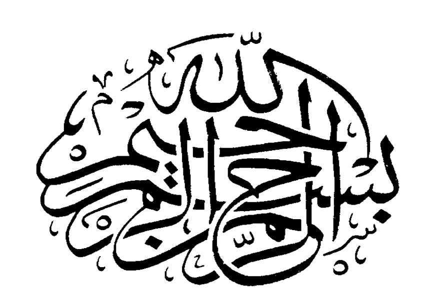
يوسف عليه السلام

.. فهل من معتبر ؟

تأليف فضيلة الشيخ
عبد الرحمن عبد القادر المعلمي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار الهمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
فاكس : ٥٤٥٧٧٦٩ ت : ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
اسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩


بسم الله الرحمن الرحيم

دُرُوسٌ وَعِظَاتٌ وَعِبَرٌ فِي سُورَةِ

يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام



بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

رقم الإيداع ١٣٤٦٠ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى
977-331-208-9

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ مصدِّقًا لما بين يديه مُفصّلاً ومحكمًا ، بيَّن فيه الحلال والحرام ، وفيه من العبر والمواعظ ما تتفتت له صم الجبال الرواسى ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ [الحشر : ٢١] وفيه من الأمثال والحكم ما تشرئب إليه الأعناق وتشنف إليه الآذان ، وفيه من القصص ما يُبهر العقول والألباب ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الهادي إلى صراط مستقيم الذي كان هذا القرآن معجزة وبرهانًا ساطعًا لصدق رسالته العالميّة ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)** ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد :

فإن الجانب القصصي في القرآن الكريم قد احتفى واهتمَّ بالتأليف فيه كثير من المؤلفين ، فيما قصَّه الله تعالى عن الرسل والأنبياء السابقين وما في هذا الجانب من أحداث عظام في الصراع بين الحق والباطل والتوحيد والشرك والإيمان والكفر والفضيلة والرذيلة ، وما تحمله هذه الأحداث من عبر وعظات تكون منادات للسائرين إلى الله تعالى .

ومما اشتهر من القصص القرآني هي تلك القصة الغرَّاء قصة يوسف عليه السلام ، وقبل أن نصل إلى ذكر لمحة عن أهميَّتها لابد من ذكر أهداف وغايات القصص القرآنى ، وقد أجملها بعضهم فيما يلى :

[١] تثبيت العقائد الصحيحة ونفى الخرافات والأفكار القديمة .

[٢] الإنذار والاعتبار ، ومن ذلك يتجلَّى أن وعيد المُكذِّبين وإنذارهم مع

تخفيف العبء عن النبى ﷺ وأصحابه المؤمنين رضي الله عنهم .

[٣] تثبيت الرسول ﷺ والمؤمنين معه على لزوم الدعوة إلى الحق وتحمل مشاقها وعدم التبرم بالعذاب مهما شقَّ ، وتعليم الصبر لمن يتلون الكتاب حقَّ تلاوته ويدعون إلى الخير حتَّى يرضوا بحكم الله وينزلوا علي سنته مع الصفوة والدعاة وإلا أفسدوا أمرهم وتنكبوا الجادة ، فلم يُفلحوا .

[٤] تأييد النبى ﷺ بما اصطفاه الله من الرسالة من التحدّي بالغيب ، والإعجاز بمعرفة تفاصيل لا يطَّلع عليها إلا علاَّم الغيوب ، ولهذا ناحيتان :

(أ) الاتصال بهدف التوحيد والإيمان السليم والتَّوكل على الله واعتزاز به مما يُحقق الأسوة الصالحة والقدوة الطَّيِّبة ويملأ النفس المطمئنة بالعزَّة بالله واللجوء إلى حماه .

(ب) تعليم الأدب فى الحوار والمناقشة والرِّقَّة والتَّلطف والعطف ليتعلَّم من يُريدون أن يعتنقوا الخير ويتَّخذوا دين الله رائدهم فى كل أمر [١] .

سورة يوسف عليه السلام :

هذه السورة العظيمة لقيت عناية كبيرة من العلماء قديمًا وحديثًا فى مؤلَّفات أُفردت فيها ناهيك عما فسَّرها المفسرون ضمن تفاسيرهم .

مناسبتها لسور القرآن :

أشار الإمام البقاعي في تفسيره إلى مناسبة السورة ، ونحصرها فيما يلى :

[١] فى أواخر سورة هود عليه السلام ذكر الله تعالى سبب القصص القرآنى على محمد ﷺ فقال : ﴿ **وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** (١٢٠) ﴾ [هود : ١٢٠]

(١) انظر : « بحوث فى قصص القرآن » للسيد عبد الحافظ عبد ربه ص (٧، ٨) .

أما فى سورة يوسف الآية (٣) فقد علَّل القرآن فيها بعلَّة أخري مُشاهدة أخص من الغرض فى آية سورة هود ، فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ وعظَّم هذه القصَّة بمظهر العظمة ، وزاد ذلك تأكيدًا ، فقال : ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾[1] .

{ ٢ } أنها تذكر عقب قوله تعالي : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ { هود : ١١٤ } ، وقوله : ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾ { هود : ١١٥ } ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) ﴾ { هود : ١١٨ } وقوله : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) ﴾ { هود : ١٢١، ١٢٢ } .

وتتضح المناسبة فيما يلى :

{ ١ } نسبة الآية الأولى في سورة يوسف أن ندم إخوة يوسف واعترافهم بالذنب وفضل يوسف عليهم في قوله : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ { يوسف : ٩٢ } أن هذا من باب إذهاب الحسنة السيِّئة .

{ ٢ } نسبة الآية الثانية أن هذا أمر منه سبحانه لمحمد ﷺ الصبر على قومه ، فأتبع بحال يعقوب ويوسف وما كان من أمرهما وصبرهما مع طول المدَّة وتوالى امتحان يوسف بالجبّ ، ومُفارقة الأب والسجن حتَّى خلَّصه أجمل خلاص .

{ ٣ } نسبة الآية الثالثة أنَّه لا أنسب لهذا فى حال إخوة فضلاء لأب واحد من أنبياء الله وصالحى عباده جرى بينهم من التشتت ما جعله الله عبرة لأولي الألباب .

---

(١) « نظم الدرر » (٤/ ٥) .

[٤] نسبة الآية الرابعة واضحة ، كأن الكلام فى قوَّة « اعملوا على مكانتكم وانتظروا » ، فلن نصبر عليكم مدَّة صبر يعقوب ويوسف [(١)] .

المناسبة بين سورتى هود ويوسف :

إن سورة هود عليه السلام تخللها قصص وآيات قاطعة بأن القرآن من عند الله وبإذنه نزل وبيَّن عظيم قدرته على مثل ما عذب به الأمم ، وعلى التأليف بين من أراد ، وإيقاع الخلاف بين من شاء ، وحكم النصرة لعابديه ، أما يوسف فقد لقى من أقرب الناس إليه ، ومن غيرهم الغربة وشتات الشمل ، ثم كانت له العاقبة فيه علي أتم الوجوه لتدرعه بالصبر على تسديد البلاء ، والتفويض لأمر الله عزَّ وجلَّ تسلية لمحمد ﷺ تأسيه بمن مضى من إخوانه المرسلين فيما يلقى فى حياته من أقاربه الكافرين .

وقد وقع ليوسف بالفعل ما همَّ الكفار من أقارب النبى ﷺ عمله به كما حكاه الله فى قوله : ﴿ **لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ** ﴾ [الأنفال : ٣٠] ، فنجا منهم ، ومن الهجرة ، ثم نصر الله يوسف على إخوته ، وهذا تثبيت لمحمد ﷺ تسلية فؤاده ، والبشارة له بما وقع يوم الفتح من ملك قيادهم ، ومنّه عليهم وإحسانه إليهم وكذلك البشارة بأن المحسود يُعَان ويُعلَى إن عمل ما هو الأحرى والأولى .

من أثر سورة يوسف فى القلوب :

إن سورة يوسف وما تضمَّنته من روائع القصص لتجد القلوب الصافية منها والمطمئنَّة تمكنًا وخشوعًا ووجلاً عند تلاوتها وقراءتها وتدبّرها ، فقد جاء عن علقمة بن وقَّاص، قال: صليت خلف عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قرأ سورة يوسف، فكان إذا أتى على ذكر يوسف سمعت نشيجه من وراء الصفوف [(٢)] .

---

(١) المصدر نفسه (٤/ ٩، ١٠) .
(٢) « الرقة والبكاء » لابن أبى الدنيا (ص ١٢٣) .

لماذا قمتُ بجمع هذه الرسالة ؟ :

إن من أسباب جمعى هذه الرسالة أننى قرأت تفسير سورة يوسف فى كتاب تفسير الشيخ / عبد الرحمن ناصر السعدي - رحمه الله - فرأيته ختم سورة بذكر قدر مُفيد لا بأس به من العبر والعظات من السورة وما يُستفاد منها ، فخطر بالبال أن أقوم بجمع رسالة تتناول الدروس والعبر مرتَّبة في السورة بشكل أوسع ليكون ذلك أكبر فائدة وأعظم نفعًا .

مَنْ أفرد السورة بالتَّصنيف :

إن كثيرًا من المؤلفين قديمًا وحديثًا قد أفردوا تأليفات خاصة فى سورة يوسف ما بين نظم ونثر وبحسب ما عثرت عليه من أسماء هذه المؤلفات ومنها ما حصلت عليها سأوردها فيما يلى :

{ ١ } « قصَّة يوسف عليه السلام » مخطوطة لابن أبى حماد البغدادى ت٢٦٧هـ .

{ ٢ } « تفسير سورة يوسف » لابن تيميَّة فى مجلد كبير [١] .

{ ٣ } « تفسير سورة يوسف عليه السلام » مخطوط لمصلح الدين مصطفي بن شعبان الرومى ت ٩٦٩هـ .

{ ٤ } « زهر الكمام فى قصَّة يوسف عليه السلام » ط (١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م) لعمر بن إبراهيم الأوسى الأندلسى ت (٧٥١هـ) [٢] .

{ ٥ } « نظم قصَّة يوسف الصديق» للعلامة إبراهيم بن أحمد الكتانى العسقلانى المليجى الشافعى (٧٨٠هـ - ٩٧١هـ) [٣] .

{ ٦ } « شواهد التحقيق فى نظم قصة يوسف الصديق » .

---

(١) « إيضاح المكنون » (ص ٣٠٨) .
(٢) « كشف الظنون عن أسامي كتب العلوم والفنون » (١/ ٤٥١) لحاجي خليفة .
(٣) « إيضاح المكنون » لإسماعيل باشا (ص٣٠٨) وهدية العارفين (ص٥٥٧) .

{ ٧ } « نظم قصَّة يوسف عليه السلام فى (١٠٠٠) بيت » لمحمد بن زين الطنتدائى النحرارى الشافعى ت(٨٤٥هـ) [١] .

{ ٨ } « قصَّة سيدنا يوسف عليه السلام » مخطوط لفتح الله البجيرمى .

{ ٩ } « الزهر الأنيق فى قصَّة يوسف الصديق » لأبى محمد عبد السلام المسراتى .

{ ١٠ } « تفسير سورة يوسف عليه السلام » للشيخ بهاء الدين بن يوسف الواعظ رتَّب علي (١٥) مجلسًا .

{ ١١ } « تفسير سورة يوسف » للشيخ يعقوب بن مصطفي الجلوتى المتخلص بعفوى (ت١١٤٩هـ) فى مجلد اسم الكتاب « نتيجة التفاسير » [٢] .

{ ١٢ } « مؤتمر سورة يوسف » للشيخ عبد الله العليمى الغزى الدمشقى .

{ ١٣ } « تفسير سورة يوسف » للمولي أحمد بن روح الله (ت١٠٠٠هـ) .

{ ١٤ } الوحدة الموضوعيَّة فى سورة يوسف عليه السلام » ط (١٣٩٣هـ) لحسن محمد باجودة .

{ ١٥ } « سورة يوسف » ط(١٣٦٤هـ) لمحمد البهى .

{ ١٦ } « يوسف عليه السلام » ط (١٢٧٧هـ) لعبد الحميد كحيل داود .

{ ١٧ } « سورة يوسف دراسة تحليليّة » لأحمد نوفل فى فهرست المكتبة المركزيَّة لجامعة صنعاء لم أعثر عليه .

{ ١٨ } « يوسف فى القرآن » لأحمد ماهر البقرى .

{ ١٩ } « مسرحيَّة يوسف الصدِّيق » د / يوسف القرضاوى .

---

(١) « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » للسخاوي(٧/ ٢٤٦) .
(٢) إيضاح المكنون »(٣٠٨) .

{ ٢٠ } قصيدة « امرأة العزيز تعترف » د / نجيب الكيلانى [١] .

{ ٢١ } « حياة يوسف » محمود شلبى ، دار الجيل .

{ ٢٢ } « يوسف بن يعقوب عليهما السلام » أحمد عز الدين عبد الله خلف الله ط (١٣٩٨هـ) دار السعادة .

{ ٢٣ } « الفتن فى حياة يوسف عليه السلام » عبد الحميد البلالى ، سفير .

{ ٢٤ } « يوسف عليه السلام من الجبِّ إلي الملك » أحمد على السعدنى .

{ ٢٥ } « تفسير سورة يوسف » محمد رشيد رضا .

{ ٢٦ } « القصص القرآنى » عبد الكريم الخطيب .

وأخيرًا :

إن هذا العمل الذى قمت به فى جمع هذه الرسالة يُعد جـهدًا كبيرًا من عبد مقل ذى بضاعة كاسدة ، وقلَّة علم وكلال فى الذهن والفكر وضعف فى النشاط وتوغَّل فى سن الشـيخوخـة من عمرى المضـاع ، الذى أسأل الله وهو السـميع المجيب أن يجـعل بقيَّته كلهـا بالعلم والعمل والتقـوي والصلاح والثبات والخـير معمورة ، وقـد تضمَّنت هذه الرسالة فى أسلوبها تيسيـرًا للقرَّاء والمربين والدعاة والشبـاب فى اختيار مـقطوعة من الآيات دون التعـرض لمفرداتها ، وإتباعـها بما يُستـفاد منها من العبـر والعظات ، ثم اتَّبعتـها بعناوين لها اتّصال بقـصَّة يوسف عليه السلام وورائها عـبرها مـثل : « لماذا كان هذه القـصة ؟ » و« ميـزان الأداء الفنى الإسلامى للقصَّة » و« كثرة ذكرالعلم فى السورة » .

ثم أتبعتها بذكـر مواقف من تاريخنا الإسلامى المضيئ ، وكيف تلألأ الإيمان وتجلَّي فى قلوب أولئك الرجـال ، فذكـر التـاريخ لهم تلك المواقف ، كل ذلك بفـضل هذا الدين الحنيف الذى وصل إلي شـغـاف قلوبهم ، واسـتعـلاؤه علي

(١) « مجلَّة الأدب الإسلامي » عدد (١٧) .

الشهوات وقبائح الأعمال وسوء الأخلاق ، تأسيًا بيوسف عليه السلام ، ومسك الختام أننى اختتمت الرسالة بعنوان « مواقف رائعة فى إطفاء نار العشق » من تاريخنا الإسلامى .

فإلى كل داع إلى الله ومُـرَبٍّ وشاب أُقدّم هذا الكتاب أن ينظروا إليه بعين الإنصاف ، وأن يغضوا الطرف عمًّا بدر منى من خطأ أو زلل ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وحسبي الله ونعم الوكيل .

كتبه

عبد الرحمن عبد القادر المعلمي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف : ١ - ٣]

ما يُستفاد من الآيات :

[١] أن اللغة العربية أفصح اللغات وأوسعها وأقومها وأعدلها وأجملها ؛ لأن من المقرر أن القول - وإن خُصَّ بخطابة قوم- يكون عامًا لمن سواهم (١).

[٢] أن هذه القصَّة وصفها بأحسن القصص ؛ لأنها تتحدَّث عن شخصية حسنة ، وهي يوسف عليه السلام ، حسن في خلقه وحسن خُلُقه وأعماله وشَهِدَ له ربه بأنه من المحسنين ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف : ٢٢] ، وقال : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف : ٣٦] ، وقال : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [يوسف : ٥٦] ، وقال حكاية عن إخوة يوسف: ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾ [يوسف : ٧٨] ، وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) ﴾ [الأنعام : ٨٤] ، ذاكرًا ليوسف ضمن الأنبياء.

وإذا كان يوسف من المحسنين ، فقد اعترف بإحسان الله إليه حين عرَّف نفسه لإخوته بعد تولِّيه ملك مصر ، وحين عفا عنهم فقال: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

[٣] أن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم أثنى على يوسف عليه السلام ، روى البخاري وأحمد من حديث أبي هريرة ، وابن عمر رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الكريم**

(١) « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » للبقاعي (٤/٥) .

ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » [١] .

{ ٤ } نزول أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وفي أشرف شهور السنة وهو رمضان ، فكمل له الشرف من كل الوجوه [٢] .

{ ٥ } إنما عبَّر بقوله : ﴿ **وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** (٣) ﴾، ولم يقل « من العالمين » ؛ لإجلال شأن النبى ﷺ [٣] .

{ ٦ } إذا عدنا إلى فضل اللغة العربية كما أشرنا سابقًا ، فإن من فضلها ما يأتي :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« إنَّ تعلّم اللغة العربية من الدين ، وإنه فرض واجب لفهم مقاصد الكتاب والسنَّة ، ومراد الشارع من خطابه ، فإن فهم الكتاب والسنَّة فرض، ولا يُفهمان إلا بفهم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » [٤] .

وقال الشاطبى :

« إن الشريعة عربية ، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم ؛ لأنهما سيّان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز ، فإذا فرضنا مبتدئًا في فهم العربية ، فهو مبتدئ في فهم الشريعة ، أو متوسطًا فهو متوسط في فهم الشريعة ، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية ،

---

(١) « يوسف في القرآن » أحمد ماهر (ص١٣) .
(٢) محمود شلبي (ص١٢) .
(٣) المصدر نفسه (ص١٣) .
(٤) « اقتضاء الصراط المستقيم » (ص٣٠٧) .

فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة ، فكان فيها حجة ، كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة ، فمن لم يبلغ شأوهم ، فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم ، وكل من قصر فهمه لم يعُدْ حجة ولا كان قوله فيها مقبولاً » [١] .

وقال ابن خلدون :

« ومعرفة اللغة ضروريّة على أهل الشريعة إذ مآخذ الأحكام الشرعيّة كلها من الكتاب والسنة ، وهي باللغة العربية ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغاتهم ، فلابد من معرفة العلوم المُتعلِّقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة » [٢] .

[٧] أن هذه القصَّة فيها من الجمال والوضوح والمعاني والدروس ما تهتز له القلوب وتنخلع لها الألباب ، وفيها دروس مُضيئة للشباب الذين يكايدون الشهوة الملتهبة شهوة الفرج ، ويُواجهون المُؤامرات والإغراءات من قِبَل الأعداء لمسخهم وتحريفهم عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها ، وعن منهج الله ، وإغراءات المادة والمال وحب الدنيا والمنصب . . وغير ذلك .



---

(١) « الموافقات » (٤/ ١١٥) .
(٢) « المقدمة » لابن خلدون (ص١٠٥) .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ [يوسف : ٤ - ٦] .

ما يُستفاد من الآيات :

[١] أنَّ في القصة أصلاً للتعبير في الرؤيا ، فإنَّ علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده ، وإن أغلب ما تُبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة ، فإن رؤيا يوسف التي رأى فيها الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا له ساجدين ، ووجه المناسبة فيها : أن هذه الأدوار ؛ ولأن الأصل أبوه وأمه ، وإخوته هم الفرع فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورًا وجرمًا لما هو فرع منه ، وكذلك كانت الشمس أمه والقمر أباه ، والكواكب إخوته ، ومن المناسبة أن الساجد معظِّم محترم؛ دلَّ ذلك على أنَّ يوسف معظَّمًا محترمًا عند أبويه وإخوته، ومن لازم ذلك أن يكون مجتبىً مُفضلاً في العلم والفضائل الموجبة لذلك؛ ولذلك قال أبوه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ (١) .

[٢] أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر وكتمان ما يُخشى مضرَّته ؛ لقول يعقوب ليوسف : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ (٢) .

---

(١) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي (ص٣٦٢) .
(٢) المصدر نفسه والصفحة .

{ ٣ } أنه ينبغي للأب أن يُدلي بالنصح لابنه ، ويُحذِّره ممن يظن أنهم ربَّما يُؤذونه ولو كانوا أقاربه [١] .

{ ٤ } أنه يجب لذوى الفضل أن لا يتظاهروا بمفاخرهم وفضائلهم إذا خافوا من أهل الحسد [٢] .

{ ٥ } أن للشيطان سلطة على كل النَّاس حتَّى أولاد الأنبياء ، حاشا الأنبياء أنفسهم [٣] .

{ ٦ } أنَّ أهل الفضل والنبل محسودون من قديم الزمان [٤] .

{ ٧ } أنَّ نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلَّق من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربَّما شملهم وحصل لهم ما حصل له سببه ، كما قال يعقوب فى تفسيره لرؤيا يوسف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ ، ولما تمت النّعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العزّ والتمكين والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف .

{ ٨ } أنَّ العدل مطلوب في كل الأمور لا في معاملة السلطان رعيّته فقط ، ولا فيما دونه ، بل حتَّى في معاملة الوالد لأولاده في المحبَّة والإيثار وغيره ، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر وتفسد الأحوال ، ولهذا لما قدَّم يعقوب يوسف في المحبَّة وآثره على إخوته جرى منهم ما جرى على أنفسهم ، وعلى دينهم وأخيهم .

{ ٩ } أن الشيطان يتربَّص ببني آدم الدوائر وخاصة المؤمنين أهل الفضل من عباد الله .

{ ١٠ } أنَّ أباه يعقوب أدرك بحسِّه وبصيرته أنَّ وراء هذه الرؤيا شأنًا عظيمًا لهذا الغلام ولا تظهر بوادره إلا في نهاية القصَّة بعد انكشاف الغيب المحجوب

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف لعبد الله العليمي الغزي (١/ ٢٠٢) .

ولهذا نصحه ألاَّ يقص الرؤيا على إخوته خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير وغير الشقيق ، فيجد الشيطان من هذا ثغرة في نفوسهم .

{ ١١ } إنَّه يجوز للمسلم أن يُحذّر أخاه المسلم ممن يخافه عليه ، ولا يكون هذا داخلاً في الغيبة .

{ ١٢ } أن استخدام كلمة ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ في النداء بصيغة التَّصغير يوحي بالحنان والمودَّة من يعقوب لابنه ، ولصغر سنِّه ، وللشفقة عليه .

{ ١٣ } أنَّ التعبير بقوله : ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ ، وإضافة الرب إلى يوسف يُوحي بتربية المهابة في نفس هذا الغلام الصغير ، وأنَّ الله تعالى تولَّى تربيته ، وأن تحقيق هذه التربية قد ظهر بإيجاد الله ليوسف ؛ وأنها ستحقق مستقبلاً في مكنون الغيب الذي يعلمه الله من سلامته من قتل إخوته والخروج من ظلمة الجُبِّ ، وتعرُّضِه لبيع الرقيق ، وتعرّضه للمحنة في مراودة امرأة العزيز ، ولبثه في السجن ، إلى المحنة الكبرى الأخيرة وهي إقبال الدنيا عليه ، وتولِّيه ملك مصر ، كل ذلك والله تعالى حافظه ومربِّيه ومُعينه وعاصمه ، وهو الذي ثبَّته وعلى أنه سيتحمَّل التكاليف الباهظة من أجل دينه ويكون له شأن عظيم :

قد رشَّحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

كذلك في استخدام كلمة ﴿ رَبُّكَ ﴾ ما يُبيِّن وثيق الصلة بين يوسف وبين ربه ، فهو طاهر الظاهر ، نقي السريرة .

{ ١٤ } فى الآية : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا .. ﴾ ، في كلمة ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ بيَّن أدبه بقوله : ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ مُشيرًا بأداة البُعد « يا » إلى أنَّ أباه عالي المنزلة جداً ، وإلى أن الكلام الآتي له وقع عظيم، فينبغي أن يهتم بسماعه والجواب عنه ؛ ولأن يوسف صغير والمنام

عظيم خطير ، فاقتضى الكلام التأكيد ، فقال : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ ﴾ [١] .

[١٥] في الآية : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ أكّد النهي في ﴿ لا تَقْصُصْ ﴾ بإظهار الإدغام وفكّه فهـو أجمل من إدغامه ، فلم يقل : « لا تقص » ، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى[٢] .



(١) « نظم الدرر » (٤/ ١٠) .
(٢) « أضواء البيان » للشنقيطي (٣/ ٥١) .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [٧ - ١٨] .

ما يُستفاد من الآيات :

[١] إنه قد يقع بين الإخوة من العداء مثل ما يقع بين الأجانب ، بل أشد وأشد .

[٢] إنه قد تجتمع الجماعة الجماء الغفيرة - ولو أقارب - على إلحاق الضرر والكيد لذوي قرباهم ، ولو كان أخًا متغيّرًا .

[٣] إنَّ الحسد قد يكون علي مجرد الحب ، وهو غريب « حتَّى على الحب لا أخلو من الحسد » .

[٤] إن الأب مهما احتاط في حفظ ولده من الحسدة ، فمن الممكن مع الاحتياط أن يغتاله الحاسدون ويضره الضارون .

[٥] إنَّ المحسود وإن لحقه في البدء ضرر وأذي ، فربَّما ستكون العاقبة في مصلحته وإنه سوف ينتصر على أعدائه ومُقاوميه .

[٦] إنه ينبغي للمحسود أن يعفو عند المقدرة ، وليس هذا فقط ، بل يحسُن منه أن يُقابل السيّئة بالحسنة والحرمان بالعطاء .

[٧] إنَّه لا بأس للمكيد إذا قوي أن يشذَّ بشوكة كائديه خوفًا من إعادة الكرة مرة ثانية .

[٨] إنَّ من اتَّقى ارتقى ، ولو خاصمه كل أهل الشقاء ، كما قيل :« كنْ مع الله ولا تُبالي » .

[٩] إنه متى تقاربت طباع جماعة أنس بعضهم ببعض وتحابوا ، وكانوا حزبًا وحربًا على من ليس من مسلكهم ، فهؤلاء الإخوة العشرة لما اتَّفقوا فى الصِّفات اتَّفقوا على كراهة يوسف الذي هو أمَّة وحده ، فضلاً ولطفًا وأدبًا، وكمالاً .

[١٠] إنَّ الفاضل الكبير قد ينخدع بحيلة أهل الدهاء كما جرى على يعقوب عليه السلام من أولاده !!(*) .

[١١] المؤمن الصَّادق مهما اعتورته الفتن وأحاطت به المشتهيات ، فلابد أن يتغلَّب عليها بكماله وعفافه ، كما وقع ليوسف مع امرأة العزيز ومع النسوة .

[١٢] إنَّه متى كان الله مع الإنسان ، ارتفع من قعر البئر إلى رأس المئذنة ، وصعد من مقر الأسماك إلى منازل الأفلاك طفرة وخرقًا للعادة .

[١٣] إن أعمال يوسف الصدِّيق تصدق القول إن يوسف نبيّ ، وأعمال إخوته تصدق القول بعدم نبوتهم خلافًا للعوام [١].

[١٤] إنَّه لا يلزم أن يكون ابن النبي نبيًا ، بل ولا يقتضي أن يكون ابن التقي تقيًا ، ولكنه قد يتفق اتفاقًا .

(*) ظاهر الآيات ينفي عن يعقوب عليه السلام أنه انخدع بحيلتهم تلك وهذه من مستلزمات النبوة التي تتطلب الفطنة وسرعة البديهة . (راجع الفقرة ٢٥ ص٢٣) .

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٢٥٢ ، ٢٥٤) .

{ ١٥ } كان مآل إخوة يوسف فترة بعد شدَّة وأناة بعد طيش، وحلمًا بعد نزق.

{ ١٦ } أن إخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه فى غيابة الجبِّ .

{ ١٧ } أنهم لو لم يُلقوه لما وصل إلى عزيز مصر .

{ ١٨ } أنَّ العزيز لو لم يعتقد بفراسة يوسف وأمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله .

{ ١٩ } أن امرأة العزيز لو لم تُراود يوسف عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعُرِفَ أمرها .

{ ٢٠ } أنها لو لم تنهزم في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما أُلقي في السجن لإخفاء هذا الأمر .

{ ٢١ } أن يوسف لو لم يُسجن لما عرفه ساقي الملك وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا .

{ ٢٢ } لو لم يعلم الساقي من يوسف هذا لما عرفه ملك مصر وأمن عليه وله وجعله على خزائن الأرض .

{ ٢٣ } أن يوسف لو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن يُنقذ أبويه وإخوته أجمعين وأهلهم أجمعين من المخمصة ويأتي بهم إلى مصر ؛ ليُشاركوه في رئاسته ومجده ، بل لما تمَّ قول أبيه : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ .

{ ٢٤ } أن يوسف لو لم يحصل له هذه الغربة والمكائد ابتداء من البيت وانتهاء بالسجن لما أنقذ الأمة ، أمَّة مصر ومن حولها من المجاعة في سنينها الجدباء ، ولحصلت نكبة للأمة بأسرها ، فقما من حلقة في هذه السلسلة إلا وكان ظاهرها محرقا وباطنها مُشرقًا ، وبدايتها شرًا وخُسْرًا ، وعاقبتها خيرًا وفوزًا ، وصدق قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ .

{ هود : ٤٩ } .

{ ٢٥ } علم يعقوب لتأويل رؤيا يوسف وعِلمه بكذبهم بدعوى أكل الذئب له.

{ ٢٦ } شهادة الله ليوسف بالعلم بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ (*) .
{ يوسف : ٦٨ }

{ ٢٧ } شم يعقوب لريح يوسف منذ فصلت العيـر من أرض مصر قاصدةً أرض الشام .

{ ٢٨ } علم يوسف عليه السلام بتأويل الأحاديث .

{ ٢٩ } رؤيته لبرهان ربه .

{ ٣٠ } كيد الله ليوسف؛ ليأخذ أخاه في دين الملك .

{ ٣١ } علم يوسف عليه السلام بأن إلقاء قميصه على أبيـه يعيده بصيرًا بعد عى سنين كثيرة .

{ ٣٢ } باختـصـار في القـصَّة مـجـال لسـؤال السـائلين عن كل هذه المعـاني العظيمة [1] .

{ ٣٣ } مجيئها على طريق الإعجاز والتَّحدِّي .

{ ٣٤ } اشتمالها على إعجاز الإخبار بالغيب .

{ ٣٥ } انتظامها كثيرًا من الأخلاق العالية والآداب السامية .

{ ٣٦} إتيانها على لسان أمي لم يقرأ ولم يكـتب ولم يُخالط العلماء ولم يُعاشر القسيسين والرهبان [2].

{ ٣٧ } أن الشباب عادة يميلون إلى الحركة واللعب وخـاصة الصغار ، فينبغي لنا من آباء ومربين أن نُعطيهم فترة زمنيّة من أوقاتهم في اليوم للعب والتَّسلية

(*) والمقصود بالعلم هـنا أنَّ يعقوب عليه السلام علي علم من الله بأنـه لا يغني حذر من قدر ، والآية على أنَّ الشهادة بالعلم هنا يقصد بها يعقوب عليه السلام . راجع « صفوة البيان لمعاني القرآن » للعلامة محمد حسنين مخلوف -رحمه الله - (ص٣١٢) طبعة الإمارات .

(١) محمد رشيد رضا ، رسالة مطبوعة من تفسيره (ص ١١ ، ١٢) .

(٢) يوسف عليه السلام ، نظرات في التفسير ، عبد الحميد كحيل داود (ص ٢١) .

لتجديد نشاطهم والترويح ، خصوصًا اللعب المباح ، ولذلك علّل أبناء يعقوب لأبيهم ليأذن بخروج يوسف عليه السلام معهم قائلين : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ ، ولا يُستبعد أن يُؤخذ من هذه الآية أدب الرحلة كالرحلات العلميّة التربويّة النافعة المفيدة .

{ ٣٨ } إنه كان في هذه القصَّة دلائل وعلامات على قدرة الله ، فمن يعش أحداث هذه القصَّة يجد أنَّ الخير تولَّد في سوء السجن - مثلاً - والكيد تمخَّض عن بركة البرئ ، وبينما الأثر السيئ ازتدَّ إلى من دبَّروا أمرهم بالكيد لغيرهم والمكر بهم .

{ ٣٩ } ﴿ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) ﴾ دلالات على وحدانية الله تعالى ، وعلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، آيات دالة على عظمة الله وقدرته في تصديق رؤيا يوسف عليه السلام ، ونجاته ممن كادوه، وعصمته وعلوّ أمره [(١)].

{ ٤٠ } أنَّ العاصي حين يعزم على ارتكاب الذنب يُزيّن له الشيطان ذلك ، ويطمّعه بالتَّسويف ، ويُهيِّء له المناخ الزمني الطويل بتسويف التوبة بعد أن يوقعه في مستنقع المعصية ، فيتحقق للشيطان أُمنيته من إيقاع العبد في المعصية ، فكأنه أغرى أولاد يعقوب بأمنيتين :

(أ) أن والدكم سيصفو قلبه ويُحبكم بدلاً من يوسف وأكثر منه .

(ب) أنكم ستتوبون مُستقبلاً من هذا الذنب وتُصبحون بعده من خيار عباد الله .

{ ٤١ } أنَّ الشاغل الأعظم لأبيهم هو حب يوسف ، فلذلك أوصلوا الفعل فى قولهم ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ بكلمة ﴿ أَرْضًا ﴾ بدون حرف جر أي لم يقولوا : « اطرحوه في الأرض » أو : « اطرحوه إلي الأرض » ، ونكَّروا كلمة ﴿ أَرْضًا ﴾ دلالة على أنها مجهولة مُقفرة ، فيكون هلاك

---

(١) « نظم الدرر » (٤/ ١٢) .

يوسف فيها محققًا ، فكأن قائلهم بذلك يقول : إن تورَّعتم عن مباشرة قتله بأيديكم فالبديل طرحه في أرض مجهولة مُقفرة [١].

{ ٤٢ } ﴿ **وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ** ⑨ ﴾ أُمنيات وتمويهات ما أشبه هذا بقول الفسقة إذا أنت أردت أن تردعهم عن الفسق ، وتحول بينهم وبين الفجور : نتوب إلى الله بعد أن نُمتّع أنفسنا ، وباب التوبة مفتوح . . . وهذا إمعان في المعصية ، وكأنهم أخذوا على الله عهدًا أن يُبقيهم إلى ما بعد المعصية ، وأن يُمهلهم حتَّى يتمكَّنوا من التوبة إذا كانوا يُريدونها ، وما علموا أنَّ الموت قد يفاجأهم فلا يُمكَّنون من التوبة ، ولا يوفَّقون لإنابة ، وهنالك يندمون ولا ينفعهم الندم ، على أنَّ ذلك القول ليس من شأنه أن يصدُر من رجل حريص على التوبة ، وإنما يصدر من رجل لا يُبالي أعصى الله أم أطاعه ، أأرضاه أم أسخطه ، وإلا فكيف يحرص على التوبة من يُقدم على عصيان الله تعالى راضيًا مختارًا ، ولا همَّ له إلا إرضاء شهوة نفسه ، مُعتمدًا على أن يُصْلح ما بينه وبين الله بعد ذلك العصيان .

والشأن في المؤمن أن يكون خائفًا وجلا من عصيان الله تعالى ولا يقع فيه إلا لأسباب وقتيّة جاهلة ، وبزوالها تزول المعصية ، كالرجل الطيب الخُلُق الوادع لا يسب أحدًا أو يشتمه إلا إذا طرأ سبب قاهر ، كأن أغضبه أحد أو حرَّك فيه داعية الانتقام ، فوقع منه على خلاف العادة سبٌّ أو لعن ، فإن ذلك الحدث النادر لا يخرجه عن أن يكون طيب الخلق وادع النفس : ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ⑰ ﴾ .

{ النساء : ١٧ } .

---

(١) « نظم الدرر » (٤/١٢).

وكذلك إذا قلنا المراد من قوله ﴿ صَـالِحِينَ ﴾ أي يُصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه ، فإنه تعليل بالأماني وكأنهم يتغفَّلون أباهم يعقوب عليه السلام بذلك القول فيما بينهم ، ويقولون : نعمل بيوسف ما نعمل ، وبعد ذلك نُصالح أبانا ونرضيه ، وهو شيء هيِّن . . . وما دروا أنَّ ذلك العمل سيجرّ عليهم مغارم ، وأن أباهم سيتألم منهم ألمًا لا يُحَدّ ، وستسوَدُّ العلاقة بينهم وبينه حتَّى لا يكون فيها شيء من الصلاح ، ولكن الشيطان يهوّن على الإنسان المعصية ، ويُريه أنَّ الخلاص من آثارها أسهل شيء على النَّفس ، ومن شأنه دائمًا أنَّه إذا زيّن للرجل سوءًا يُنسيه عاقبته التي تحلّ به ، ويُريه أنَّه من السَّهل عليه الفرار منه ، فإذا كان سارقًا أراد أنَّه في استطاعته أن لا يعلم به أحد ، وإذا اعترضه أحد في الطريق ، فتك به وخلص منه ، وإذا زيّن له زنا أراه أنَّ في استطاعته أن يعمل ذلك وهو بعيد عن الرُّقباء حتَّى لا يُفضح أمره ، وإذا زيّن له القتل أوهَمَهُ أنَّه قلَّ أن تتوفَّر عليه شهادة الشهود ، حتَّى يقع في ذلك القتل ، وهكذا وهكذا . . . . » [1].

{ ٤٣ } أنَّ القرآن الكريم أشار إلى حقيقة ، وهي سنَّة من سنن الله تعالى هي «سنَّة التَّدافع » ، وهو الصراع بين الخير والشر ، بين الحقِّ والباطل ، فهؤلاء إخوة يوسف أجمعوا على قتله ظلمًا فهيَّأ الله واحدًا منهم يطلب منهم تخفيف هذا المكر بإلقائه في الجبِّ ، وفي قصَّة أصحاب الجنَّة في سورة القلم هيّأ الله تعالى أوسطهم لنصحهم ، وصاحب الجنتين في سورة الكهف الذي انخدع بجنَّتيه ، فهيّأ الله تعالى له ناصحًا ينصحه ، ورسول الله موسى عليه السلام حين كان رضيعًا وأرسلته أمه في التَّابوت بعد

---

(١)« دعوة الرسل إلى الله تعالى » محمد أحمد العدوي (ص ٩٣) .

ولادته ووصوله عن طريق البحر إلى قصر فرعون إلى ألد أعدائه ، فهيّأ الله لحفظه امرأة فرعون المؤمنة تُقاوم الباطل في عقر داره ، وما قصَّه الله تعالى من تهيئة مؤمن آل فرعون الذي كتم إيمانه ثم أظهره بعد ذلك في سورة غافر ، وهكذا سنَّة الله تعالى في التَّدافع بين الخير والشَّر وبين الحقِّ والباطل .

[٤٤] استنبط العلماء من قوله تعالى : ﴿ **يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ** ﴾ أحكامًا للَّقيط واللَّقيطة .

[٤٥] أنَّ بعض الشَّر أهون من بعض ، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما ، فإنَّ إخوة يوسف لَّما اتَّفقوا على قتل يوسف وإلقائه أرضًا ، وقال قائل منهم : ﴿ **لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ** ﴾ ، كان قوله أحسن منهم ، وأخف ، وبسببه خفَّ عن الإخوة الإثم الكبير [١] .

[٤٦] أنَّهم لَّما جاءوا إلى أبيهم ليطلبوا منه الإذن ليوسف بالخروج معهم استخدموا في خطابهم أسلوب الاستفهام الإنكاري التَّعجبي ، فقالوا : ﴿ **مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ** ﴾ ، وهذا يدل على أنهم طلبوا منه ذلك مرارًا سابقة ، وأنهم عرفوا ذلك من خلال مُلازمة أبيهم ليوسف وعدم فراقه له ، وانظر كيف استخدموا أسلوب النداء للبعيد بـ«يا» ، فقالوا : ﴿ **يَا أَبَانَا** ﴾ ، فكأن أباهم بعيد عن رغبتهم وطلبهم ومحبَّتهم ، وفي إضافة الأب إلى « نا » الدَّالة على المتكلِّمين تُوحي بالاستعطاف لأبيهم بحقِّ الأبوة ، وأنَّ أبوته تشملهم ويوسف عليه السلام .

[٤٧] وفي التَّعبير بقوله : ﴿ **مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا** ﴾ جمال ودلالة ذلك أنه أجمع القراء على حذف حركة الرفع ، وهي النون التي تنتهي بالفعل « تأمن »

---

(١) « تفسير السعدي » (ص ٣٦٢) .

أصلهـا : « تأمنُنا » بضم النون الأولى باعـتبـار الكلمة فـعلاً مـضارعًـا مرفوعًا لتجـرده عن الناصب والجازم ، ولكن النون هنا سكنت وأُدغمت في نون الضمـير المتّـصل « نا » ، وفي هذا دلالة على نفي سكون قلب يعقـوب على يوسف بأمنه عليه من إخوته عـلى أبلغ وجه مع أنَّهم أهل لأن يسكن إليهم بذلك غاية السكون [1] .

{ ٤٨ } في قوله تـعالى : ﴿ **قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ** ﴾ ، أبدى تخوفه من أمرين :

(أ) حزنه عند ذهابهم بيوسف .

(ب) خوفه من أن يأكله الذئب .

وإنما لم يُجيبوا إلا عن عـذر واحد دون الآخر وهو خوفه من ﴿ **أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ** ﴾ ؛ لأن العذر الأول كـان يغيظهم ويُذيقهم الأمرَّين ، فـأعاروه آذانًا صمّـاً ولم يعبـأوا به [2]، ونعلم أن يوسف كـان صغيـرًا في ذلك الوقت ؛ لأن الذي يُخـشي عليه من الذئب هو الصـغير ، والـذى يغفل عنه إخوته يكون معـرَّضًا للخطر لهذه الغفلة هو الصَّغـير ، وهنا تتجلَّى شفقة الآباء على أبنائهم الصغار وحنانهم عليهم في وقت الضَّعف ، ولو علم الأبناء ما تُقاسـيه الآباء في سبيل حرصهم على حـياتهم ما فكَّر ولد في عقوق والديه ، وما تأفف منهـما عند الكبر والضعف عن الكسب ، وهذه الشَّفقة التي يضعـها الله تعالى في قلوب الوالدين هي لحكمة بالغة وغايات سامـية ، وهي بقاء النَّسل ، وعمارة هذه الحيـاة ، وعبادة الله ، ولولا تلك الشَّـفقـة ، وذلك العطف البـالغ لمات الأبناء جـوعًا وتُركـوا للطوارئ تفعـل بهم ما تفعل ، وتعـرَّضوا للأخطار التي لا قِـبل لهم بها

---

(١) « نظم الدرر (٤/ ١٥) .

(٢) « الكشاف » (٢/ ٣٠٦) .

وهلكوا من الجهل وسوء التربية ، ولكن حكمة الله تعالى قضت بأن يجعل في قلوب الآباء ذلك الحنان والعطف وتحت تأثير هذه العوامل تعيش الأبناء وتُربَّى التربية الصالحة ، ويضحى في سبيل حياتهم الصالحة ومستقبلهم المرجو من شقاء الأبوين ما يضحّي ، ولولا أن هذه العاطفة التي أودعها الله في الأبوين قد يكون معها جهل الأبوين بوسائل السعادة للأبناء ، لأتت هذه العاطفة أملها كل حين بإذن ربها ، وأثمرت ثمرتها الصالحة ، ولكن الجهل في كثير من الآباء يجعل هذه العاطفة شرًا مستطيرًا على الأبناء ، وخطرًا على أخلاقهم وحياتهم ، ألا ترى إلى الأم الجاهلة بوسائل التربية كيف تُعطي ولدها من الأطعمة الغليظة ما يُفسد معدته ، ويجعل حياته ضعيفة ضئيلة ، وبذلك يكون مُستعدًا للأمراض مُعرَّضا للآفات ، وقد نرى من النساء الجاهلات حيلولة بين الولد وبين تربيته ؛ لأن أستاذه قسا عليه يومًا ، فتكون تلك القسوة سببًا في حرمانه من التعليم وبقائه في ظلمات الجهل والفساد .

وقد نرى بعض الآباء الجاهلين يمنع ابنه من الصلاة في المسجد ، ومن مُصاحبة ومُجالسة الجليس الصالح من زملائه ، وكذلك نرى من الأمهات الجاهلات من تقوم بهذا الأسلوب حتَّى ينشأ الولد جاهلاً بربه مهملاً لفرائض الله ، ومن شبَّ على شيء شاب عليه ، ونقول : متى يمنّ الله علينا بتلك الأم وذلك الولد ؟ ، ومتى يكن الآباء قدوة صالحة للأبناء ، ومثالاً يُحتذى في الخير والفضيلة والشَّجاعة الأدبيّة ؟ نسأل الله أن يجعل ذلك الزمن قريبًا ، وأن يمدَّ لنا أسباب السعادة ووسائل الحياة الحقَّة [١] .

---

(١) « دعوة الرسل » (ص٩٤ ، ٩٥) .

[٤٩] أن يوسف عليه السلام هذا الصبي الصغير المظلوم لمّا نزل به الكرب وبات في ظلمة الجبِّ ، بليلة ليلاء مملوءة بالهموم والوحشة والغربة ليس معه أحد إلا الله هبَّت عليه في ساعات هذه الليلة نسائم السَّكينة الوحي من الله اللطيف الحكيم العليم ، نسائم من الأمل الذي يبرق ويُبدّد الهموم والأحزان ويكشف ما يتحقَّق مُستقبلاً من وراء الأُفق ليسكب دفقات نديّة على هذا القلب المتوقّد الحزين الطَّيب النظيف البرئ ، ويُزحزح ما هجم عليه من كروب ،وأنه سيأتي يوم من أيَّام الله يكون هذا الولد ملكًا يلتقي فيه يوسف مع إخوته الكائدين له ، يُذكّرهم بما فعلوه نحوه دون أن يشعروا أنه هو أو أنه يعيش ، أو أنه على قيد الحياة ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ .

وقد يُؤيّد الله أولياءه عند الأذى والابتلاء فيه بأن يرزقهم الصَّبر ، وقد يكون التّأييد عاجلاً ماديّاً حسيّاً أو معنويًا ، فيوسف عليه السلام هنا تلقَّى هذا التأييد الذي خفف عنه هذا البلاء ببشارة معنويّة ، والبُشريات السارة المستقبليّة حتَّى ولو كانت موجزة مجملة ، فإنها تجلب التَّسلية من الأذى والألم كالمسافر الذي يُعاني آلام السفر وطوله يتذكَّر ساعة القدوم على الأحباب فيشتد صبره كما قيل :

طاول بها النَّجم مال النَّجم أم جنحا ... وما طل النوم ضنَّ الجفن أم سمحا
إن تشكَّت فعلتها المجرَّة مَنْ ... ضوء الصياح وعدْها بالرواح ضحى

وقد يكون رفع من الله لعبده إليه كما رفع الله عيسى عليه السلام ، وهذا تكريم مادي ،وكما اختصَّ الله تعالى نبيّه وعبده محمدًا صلى الله عليه وسلم لمّا عادَ من الطَّائف وقد لاقى من الأذى ما لا يعلمه إلا الله من استماع الجنِّ وإيمانهم به خلال عودته إلى مكَّة ونفَّس الله عن قلبه عقب وصوله إلى مكَّة بتكريمه بالإسراء والمعراج ، وما شاهده من الآيات العظيمة ما أنساه تلك

الصنوف من الأذى ، وما أيَّد الله تعالى نـبيّه وخليله إبراهيم عليه السلام بتأييد حسّي وهو سلامته من النار المُحرقة التي رمي فيها .

وقد يُؤيّد الله عـبده المُبتلى إذا أُوذي بالسـجن والقيود والضّـرب بما يرزقه من الصَّبر ، فلا يضيق من ألم الضرب ولا ثقل القيود في السجن ، كما جـاء في ترجمـة العالـم يوسف بن يحيى البـويطي صـاحب الشافـعي (ت٢٣١هـ) في مـحنة خلق القرآن فـي خلافـة الواثق العبـاسي ، فقـد امتُحن هذا العالم وجيئ به من مـصر إلى بغداد وهو في القيود ، وأُودع السجن وهو صـابر لا تلين له قناة ولا يُقر بهذه البدعـة ، يقول الربيع : وكتب إليَّ البويطي من السجن وهو صابر يقول : « إنه ليأتي عليّ أوقات لا أحسّ بالحديد أنه على بدني حتَّى تمسَّه يدي » [١].

هذا تأييد عاجل ، أمَّـا التأييد الآجل فهو ما يرفع الله به عـباده المتَّقين ، وأولياءه المجاهدين من الدرجات العالية في جنته ، بل ما يدَّخره الله لهم بما هو أسمى من ذلك وأعظم ألا وهو رضوانه سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾ [التوبة : ٧٢] .

[٥٠] في الآية : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥) ﴾ نرى جواب «لمَّا» محذوفًـا ؛ لأن جوابها حين كان في غاية الوضـوح ، فقد تُرِكَ لدلالة الحال عليه هنا ، وتقدير الكلام : فلمَّا ذهبـوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيـابة الجبّ فعلوا ذلـك من غير مـانع . وترك جوابهـا هنا ؛ لأنهم إذا

---

(١) انظر : « المنتظم » لابن الجوزي (١١/ ١٧٤، ١٧٥) .

أجمعوا عليه فلا يوجد في هذا الموقف من يمنعهم من إلقاء يوسف عليه السلام في الجُبِّ [(١)].

[٥١] أنَّ تأخّرهم وعودتهم عشاءًا كان تتميمًا للكذب ومُبررًا فكأنهم يقولون : قد بحثنا عن يوسف طوال النهار وجزءًا من الليل ، ورغم هذا أنه أخذه الذئب ، ولو أنهم جاءوا عصرًا لاتَّهمهم أبوهم بالتَّقصير – حسب ظنهم – وربَّما طلب منهم الذِّهاب بقيَّة النهار ثانية ، فأرادوا بهذا المجيئ الليلى إعلان نهاية الفرصة ؛ ولأن ظلمة الليل تمنع والدهم أن يتفرّس في وجوههم إذا رآها في ضياء النهار عكس ما جاءوا به من الاعتذار ، وقد قيل : لا تطلب الحاجة [(٢)] فإن الحياء في العينين ، ولا تعتذر بالنَّهار من ذنب فتلجلج في الاعتذار . والآية دالة على أن البكاء لا يدل على الصدق لاحتمال التَّصنع [(٣)].

[٥٢] أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ؛ لاحتمال أن يكون تصنعًا ، فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر ، وقد قيل : إنَّ الدَّمع المصنوع لا يخفى كما قال الشاعر :

إذا اشتبكت دموع في خدود … تبيّن من بكى ممن تباكى

وكما قيل :

ليس النائحة كالثكلى .

جاءت امرأة إلى القاضي شريح تخاصم في شيء ، فجعلت تبكي ، فقالوا : يا أبا أميَّة أما تراها تبكي ؟ فقال : قد جاء إخوة يوسف أباهم عشاءًا يبكون .

---

(١) « نظم الدرر » (٤/١٧) .
(٢) سقطت هنا كلمة « بالليل » فتأمل .
(٣) تفسير السعدي (ص٣٦٢) .

وقال الأعمش :

لا يصدق باك بعد إخوة يوسف [١] ؛ ولأن اختيار وقت العشاء في مجيئهم توافق بين الجو الخارجي والجو النفسي الداخلي .

{ ٥٣ } استنبط العلماء من قوله تعالى : ﴿ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أحكامًا للافتضال والمسابقة ، كما سبق سلمة بن الأكوع رجلاً لما رجعوا من غزوة ذي قَرَد إلى المدينة ،فسبقه سلمة . خرَّجه مسلم وأحكام ذلك في كتب الفقه .

{ ٥٤ } أنَّ التعبير في الآية بقوله : ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾، ولم يقل : « افترسه»، أجمل وأتم وأكمل ، ولذلك يحكي الباحث شوقي أبو خليل في كتابه «الإسلام في قفص الاتهام » قصَّة لرجل مستشرق يتحدَّث مع أحد العلماء المسلمين المعاصرين مُنتقدًا على هذا التعبير القرآني في الآية قائلاً : « أنه لو قال في الآية : « افترسه » أنه أدق وأكمل من قوله ﴿ فَأَكَلَهُ ﴾ فأجابه العالم المسلم : أن أولاد يعقوب لو قالوا لأبيهم : « فافترسه » الذئب – حسب زعمك – لطلب منهم والدهم الإتيان ببقايا أعضاء جسمه ، أي جسم يوسف ، لكنهم لما قالوا : ﴿ فَأَكَلَهُ ﴾ لم يُطالبهم بذلك ، فسكت المستشرق ، وكأنَّما ألقمه حجر ولم يجد جوابًا » .

{ ٥٥ } الحذر من شؤم الذنوب ، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعدّدة ، ولا يتم لفاعله إلا بعد جرائم ، فإخوة يوسف لما أرادوا التَّفريق بينه وبين أخيه احتالوا لذلك بأنواع الحيل وكذبوا عدَّة مرَّات وزوَّروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه ، وفي إتيانهم عشاءً يبكون ، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها ، أي المدَّة ، فحصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل ، وهذا شؤم الذنب وآثاره التَّابعة والسَّابقة واللاحقة [٢] .

---

(١) « روح المعاني » (٤/١٩٩) .
(٢) تفسيرالسعدي (ص٣٦٢) .

[٥٦] أنَّ العبرة في حال العبد بكمال الهداية لا بنقص البداية ، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبر أسباب النَّقص واللوم ، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النَّصوح والسَّماح التَّام من يوسف ومن أبيهم والدعاء بالمغفرة والرَّحمة ، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين (١) .

[٥٧] أنَّ داء الحسد داء عظيم قد يكون سببًا إلى ارتكاب جريمة القتل ظلمًا ، فها هو أحد ابني آدم ، قتل أخاه بسبب الحسد ، وها هم أولاد يعقوب يفعلون بيوسف ما فعلوا بسبب الحسد ، وقد قيل للحسن البصري - رحمه الله - : أيحسد المؤمن ؟ قال : « ما أنساك ببني يعقوب » .

ولا يسلم من داء الحسد الوبيل أحد إلا من رحم الله ، حتَّى العلماء والدعاة - مع الأسف الشديد - اليوم لم يسلموا منه ، فقد يحسد العالم أو الداعية أخاه الآخر ؛ لأن الأتباع من التلاميذ يتكاثرون ويقبلون على العالم أو الداعية المحسود ، ويقلون عند العالم الحاسد ، أو من أجل مُخالفة في الرأي لا في الأمور القطعيّة في الشرع ، ولكن في بعض المسنونات ، وفي مسائل تتعلَّق بالراجح أو المرجوح ، فلا حول ولا قوَّة إلا بالله ، والله المستعان .

وهذا الكيد والمكر في إخوة يوسف الذي سببه الحسد لا فرق بين ما تعمله الناس وبين إخوة يوسف إلا أشكال ومظاهر أما الجوهر فهم مُتَّفقون عليه ، ذلك أنَّ القتل مادِّي وأدبي ، فإخوة يوسف اتَّفقوا في أول الأمر على قتل يوسف قتلاً ماديًا ، أو ما يؤول إلى ذلك القتل من وضعه في أرض مهجورة لا أمان فيها للذي يعيش بها ، ثم لما أشار عليهم

(١) « تفسير السعدي » (ص٣٦٢) .

واحد منهم بأنَّ قتله عظيم وحسَّن لهم إلقاءه في قعر الجبِّ إلى ما قال ، أمَّا القتل الفاشي اليوم في المتنافسين فهو قتل أدبي ، ألا ترى إلى الرجلين وقد وليا عملاً من الأعمال يكيدُ خبيث النَّفس منهما للآخر ، ويُدبّر له من وسائل الفتك ما لا يعلم حدَّه إلا الله تعالى ، ليخلو له وجه الرئيس ويستأثر بالحظوة منه ، والمكانة عنده ، ولاسيما إذا كان الرئيس صاحب نفوذ وسلطان ؛ ولأنه يرى زميله مُشركًا له في المحبَّة ، أو يمتاز عليه فيها ، فتُسوّل له نفسه أن يختلق على صاحبه المُفتريات ، ويدس بينه وبين ذلك الرئيس حتَّى تسوء بينهما العلاقا ، وينتهي الأمر بإبعاد ذلك الزميل من العمل الذي يعمله ، إن لم يكن يفصله منه ، وذلك قتل أدبي سببه حرص الإنسان الظالم على أن يخلو له وجه رئيسه ثم ألا ترى خلق الحسد فاشيًا في بطانات الملوك والأمراء كلٌّ يُريد أن يكون موضع السرِّ ومكان الحظوة والرضا ، ولا يسمح لزميله أن يظفر بتلك المنزلة ، وهو قادر على أن يحول بينه وبينها ، ولذلك تجدهم أحزابًا وشيعًا كل حزب يكيد للآخر ويدسّ له ، ويعمل على إسقاطه والتَّنكيل به إلا من كان له خلق متين ، ودين صالح ، فإنه لا يسمح لنفسه بذلك العمل الخبيث وقليل ما هم ، وذلك الصَّنف من البطانة لا تثبت مع الملوك والزعماء إلا قليلا ؛ لأنها لا تستطيع أن تعيش في جوٍّ مملوء بالدَّسائس ، كما لا تستطيع أن تُجاري أصحاب الأهواء والشَّهوات فتُحاربهم بسلاحهم ، وتُناضلهم بمثل ما يناضلون به ، ذلك شيء من العبرة في يوسف وإخوته وما قصَّه الله علينا من عملهم وسيرتهم .

نرجو ألا نكون ممن تأسَّى بأولئك الإخوة في ذلك الحسد المذموم الذي جرَّ عيهم من غضب الله وسخطه ما جرّ ، وأن يكون حسدنا لغيرنا ممن فضَّله الله علينا في العلم والفضل هو الغبطة لهم وتمنِّي مثل ما

لهم ، وألا يكون هذا التَّمني مما يمقته الله تعالى ويُبغضه ، بل يكون تمنّيًا للخير مع الأخذ في أسبابه والعمل على الوصول إليه ، وأن يكون موقفنا من أعطاه الله مالاً أو جاهًا موقف الراضي بما أعطاه الله وقسمه ، المطمئن لقول الله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴾ [الزخرف : ٣٢ - ٣٥] [1].

[٥٨] في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ يُلاحظ أنهم علموا أنه لا يصدقهم لأمور :

(أ) ما هو من صحَّة الفراسة ؛ لنور القلب وقوَّة الحدس .

(ب) أنَّ الكذب في نفسه لا يخلو عن دليل على بطلانه .

(جـ) أنَّ المرتاب يكاد يعرب عن نفسه ، فلذلك صنعوا حيلة في التأكيد بما يُقرب قولهم وهو مجيئهم بالقميص الملطَّخ بالدم الكذب ليلاً .

[٥٩] أنَّهم لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة أخرى تُعارضها وهي سلامة القميص من التَّخريق للثوب إذ لا يُمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابسٌ القميص ويسلم من التَّخريق ، ولمَّا تأمَّل يعقوب عليه السلام القميص ، فلم يجد فيه خرقًا ، ولا أثرًا استدلَّ

(١) « دعوة الرسل » (ص٩١- ٩٣) .

بذلك على كذبهم ، وقال لهم : « **متى كان هذا الذئب حكيمًا يأكل يوسف ولا يخرق القميص** » قاله ابن عبَّاس وغيره [(١)] .

[٦٠] لقد كانت ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾ كلمة التَّنفيس والرَّاحة لعائشة رضي الله عنها حين رُميت بالإفك في سيرتها ، فقالت : « **إني والله لا أجد - مثلاً - إلا أبا يوسف ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾** » رواه البخاري برقم (٢٥١٨) ، **فأعانها الله** بنزول براءتها وهكذا دائمًا ينبغي أنَّ الصبر قرين الدعاء إلى **الله** ، **فلا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تُزكي نفسك**، **كما يقول سفيان الثوري إلا إذا كان الغرض من** التَّحدث القدوة الصالحة للغير [(٢)]، وأنَّ خُلُق الصَّبر زادٌ تحلَّى به الرسل والأنبياء والسلف الصالح والمصلحون من هذه الأمة وصدق رسول **الله** ﷺ : « **والصبر ضياء** » [(٣)] .

[٦١] أنَّ الاستعانة **بالله** تعالى أمر مطلوب في كل شيء وعند حدوث المحن والخطوب ، وعند افتراء الأكاذيب على الدعاة وأهل الحق ، فقد أرشدنا **الله** سبحانه وتعالى أن نقول في كل ركعة : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ⁽٥⁾ ﴾ .



---

(١) « القرطبي » (٩/١٤٩) .

(٢) « يوسف في القرآن » أحمد ماهر (ص٢٢) .

(٣) رواه مسلم برقم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري والترمذي برقم (٣٥١٢) .

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴾ [يوسف : ١٩ ، ٢٠] .

ما يُستفاد من الآيتين :

[١] أن تعلق يوسف بالحبل وصعوده بواسطته من الجُبِّ يدل على صغره إذ لو كان محتلمًا لم يحمله رجل واحد بالحبل غالبًا (١) .

[٢] **هناك فوائد** :

(أ) أنَّ الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب ، وأنه ينتظر للشدَّة .

(ب) أنَّ من خرج لطلب شيء قد يجد ما لم يكن في خاطره .

(جـ) أن الشيء الخطير قد يعرض فيه ما يُهوّنه .

(د) أنَّ البُشرى قد يعقبها الحزن، والعزَّة قد يعقبها الذلَّة وبالعكس (٢) .

[٣] إن الوارد لم ينزعج من تعلق يوسف بحبال الدلاء أو رؤيته في قعر الجُبِّ واستبشر ؛ لأن يوسف كان حسن الطَّلعة جميل الوجه ، ومن يراه لا يستطيع أن يجد الحزن إليه سبيلاً ، فانطلق لسانه بالبشرى ونداء الأصحاب، وقوله : ﴿ **هَٰذَا غُلَامٌ** ﴾ قوله هذا القول لهم ، ولو كان المرئي غير يوسف لفزع الوارد من رؤيته في ذلك المكان الذي لم يُؤلف وجود غلمان (٣) .



(١) « القصص القرآني » (ص٤٢٠) .
(٢) محمود شلبي (ص٣٨) .
(٣) « دعوة الرسل إلى الله تعالى » (ص٩٨) .

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾[يوسف : ٢١ ، ٢٢] .

ما يُستفاد من الآيتين :

[١]أنَّ الله تعالى يجعل لعباده المؤمنين محبَّة عظيمة في نفوس خلقه ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾ [مريم : ٩٦] وقال رسول الله ﷺ : « **إذا أحبَّ الله العبد نادى جبريل : إنَّ الله يُحبُّ فلانًا فأحببه ، فيُحبّه جبريل ، فيُنادي جبريل في أهل السماء : إنَّ الله يُحبُّ فلانا فأحبوه، فيُحبّه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض**»[1] فلا غرو أن يوصي عزيز مصر امرأته بتكريم يوسف .

[٢]إن العبد المؤمن الصادق إذا ابتلاه الله بعداوة من أقاربه وجيرانه ، فإن الله سبحانه وتعالى يجعل له مخرجًا منهم ، ويُهيئ له من يُحبه ويُعينه وينصره على دعوته من غير أقاربه وقومه ، كما هيّأ ليوسف ولنبيه محمد ﷺ بإسلام الأنصار في المدينة وإيوائهم له .

[٣]أنَّ ما اختار الله لعبده ، فكله خير وبركة وفيه حكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، وهذا الاختيار من الله خير مما يختاره العبد لنفسه .

[٤]أنَّ الحكمة والعلم لا يُؤتاهما إلا من أحسن لله ، ونأى بنفسه عن الرذائل والشبهات كما نرى من سيرة يوسف وهو الشاب الذي ﴿ **بَلَغَ أَشُدَّهُ** ﴾ ، أي أقصى ما يصل إليه من كمال البنية والفكر لا خور ولا هزال ، وواضح أنَّ القرآن لا يحد العمر ؛ لأنه في حدِّ ذاته قد لا يكون له دلالة ما ، فقد

---

(١)البخاري رقم (٣٠٣٧)، ومسلم رقم (٢٦٣٧).

يبلغ الرجل (٣١) سنة أو (٤٠) سنة ، وينقصه الكثير من التَّجارب التي لا تنقص - مثلاً - واحدًا في سن العشرين [١] .

[٥] في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ نفى الله تعالى العجب فيمن وقع له التَّمكين من أن من أن يُفْعَل به مثل هذه الأفعال من بيعه وغربته ومستبعد عن أقاربه وعشيرته وليس له أعوان ، فكيف يكون التَّمكين مع هذه العوائق والموانع ؟ ، فزال هذا الاستغراب والعجب بقول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ فتجلَّت قدرة الله فيما يلي :

١ - أراد إخوته قتله فنجا .

٢ - أرادوا أن يلتقطه بعض السيّارة ليغيب ، فغلب أمر الله .

٣ - باعوه ليكون مملوكًا ، فغلب أمر الله حتَّى صار ملكًا .

٤ - احتالت عليه امرأة العزيز ، فغلب أمر الله وسلم من المحنة .

٥ - بلغت جهدها في إذلاله وإلقاء التهمة عليه ، فأبى الله إلا إعزازه وبراءته .

٦ - أراد يوسف ذكر الساقي له عند سيده فغلب أمر الله فنسي ذكره حتَّى مضى الأجل الذي ضربه الله ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] .

[٦] في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ نرى لطائف صنعه ، وخفايا لطفه ، وأن الشر الظاهر قد يكمن فيه الخير الكثير ، كما حصل ليوسف في الجبِّ ، وأن الخير والنَّصر الظاهري قد يكون وراءه النَّدامة والحسرة ، كما نصر إخوة يوسف ورموه في الجب ، ثم انتهى الأمر بأن صار سيدهم ، وأن ما فعلوا به كان من أسباب ارتقائه [٣] .

(١) « يوسف في القرآن » (ص٥) .
(٢) « نظم الدرر » (٤/ ٢٤ ، ٢٥) .
(٣) « دعوة الرسل إلى الله » (ص٩٩) .

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف: ٢٣- ٢٩] .

ما يُستفاد من الآيات :

[١] موقف عظيم ليوسف عليه السلام ، وهذا درس لكل شاب ، بحيث برز هنا بوضوح وجلاء استعلاء الإيمان على الشهوة والمغريات لها ، وثبات الشاب المؤمن الصادق المخلص الصابر يوسف أروع الأمثلة في الثبات ورفض المعصية وتكاثرت أمامه عدَّة دواعٍ كما يلي :

(أ) أنّ التعبير في قوله : ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ يوحي بكثرة الأبواب في القصر فقد غلقتها وأحكمت إغلاقها ، وأنها قامت باحتياطات كثيرة للوقوع في الفاحشة ، والتَّشديد في اللام في الفعل ﴿ غَلَّقَتِ ﴾ يوحي بإحكام الإغلاق للأبواب حتَّى لا يدخل منها أحد عليهما ، ولا يفوت عليها بسهولة أو يتخلَّص من كيدها .

(ب) أن قولها : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ طلب مغرٍ ومعناه « هلم » أو « تهيأت لك » من أشد الإغراءات الموصلة إلى الفاحشة مما يستهوي أمراض القلوب وضعاف الإيمان وعبَّاد الشهوات من الشباب .

(جـ) أنها ذات منصب وضعاف الإيمان يتمنون الوصول إليه بأية وسيلة .

(د) أنَّها ذات جـمال ؛ لأن الملوك عادة لا يتخـيَّرون إلا النساء الجمـيلات الفاتنات المنعَّمـات المترفات ، وهذا داعٍ خطير من دواعي المعـصية ، لكن قوَّة الإيمان استعْلَت على نار الشَّهوة وأطفأتها .

(هـ) أنه كان شابًا والشباب مركب الشَّهوة .

(و) أنه كان غريبًا ليس عنده ما يُعوّضه .

(ز) أنه كـان غريبًـا عن أهله ووطنه والمُـقيم بين أهله وأقـاربه يخـشى أن يعلمـوا بما جرى له من سوء ، فـيسـقط من عيونهـم ، ويكون عارًا عليهم ، فإذا تغرَّب زال هذا المانع .

(ح) أنه كان في صورة المملوك والعبد لا يأنف منه الحر .

(ط) أنَّ المرأة كانت هي المطالبة ، فيزول بعد ذلك كلفة تعرض الرجل لها وطلبه وخوفه من عدم الإجابة .

(ي) أنهـا زادت مع الطلب الرغبـة التَّـامة والمراودة التي يزول معهـا ظن الامتحان والاختبار ، لتعلم عفافه من فجوره .

(ك) أنها كـانت في محل سلطانهـا وقصرها بحـيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون .

(ل) أنها أتته بالرغبة والرَّهبة ، ومع هذا فعفَّ ولم يُطعها [١] .

[٢] أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتـنة وأسباب معصية أن يفرّ منه ويهرب غاية ما يُمكنه ؛ ليتمكَّن مـن التَّخلص من المعصية ؛ لأن يوسف عليه السلام لما راودته التي هو في بيتها فرَّ هاربًا يطلب الباب؛ ليتخلَّص من شرها [٢] .

---

(١) « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » لابن القيّم(ص٣٠٩) .

(٢) « تفسير السعدي »(ص٣٦٤) .

{ ٣ } لم تذكر الآية أنها أمرت أحدًا بغلق الأبواب ، وإنَّما غلَّقتها بنفسها ؛ لتزداد اطمئنانًا ثم أعربت عن رغبتها الشديدة صراحة : أقبل، فاستعاذ بالله من شرها ، لقد أكرم الله مثواه ، فرفعه من قاع بئر هاوية إلى بيت عزيز مصر، فتكون مُقابلة هذا بغير الشكر والاستقامة طلمًا ينذر بخسارة أمره .

{ ٤ } عجبًا للحب ، هذه تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخس ، أين مُلْكُها ؟! وسطوة مُلكها في تصوير الآية الكريمة ، لم تزد الآية على أن قالت : ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ** ﴾ ، و﴿ **الَّتِي** ﴾ هذه الكلمة تدل على كل امرأة كائنًا من كانت ، فلم يبق مع الحب مُلك ولا منزلة ، وزالت كلمة ملكة من الأنثى [١] .

{ ٥ } إنَّ أعجب من هذه الكلمة ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ** ﴾ وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تُشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها ، لون بعد لون ، ذاهبة إلى فن راجعة من فن ؛ لأن هذه الكلمة مأخوذة من رودان الإبل في مشيتها تذهبُ وتجيءُ في رفق [٢] .

{ ٦ } إنَّما قال : ﴿ **عَن نَّفْسِهِ** ﴾ ؛ ليدل على أنها لا تطمع فيه ، ولكن في طبيعته البشريَّة ، بمعنى أنَّ المرأة بذلت كل ما تستطيع في إغوائه مُقبلة عليه ومُتدللة ومتبذلة من كل جهة بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشريَّة وعارضة كل ذلك عرض امرأة خلعت أول ما خلعت أمام عينيه ثوب الملك [٣] .

{ ٧ } إنَّما قال : ﴿ **وَغَلَّقَتِ** ﴾ ، ولم يقل : « أغلقت » وهذا يُشعر أنَّها لما يئست ورأت منه الانصراف أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تتخيَّل القفل

---

(١) « وحي القلم » (١/ ١١٤) .
(٢) المصدر نفسه والصفحة .
(٣) المصدر السابق .

الواحد أقفالاً عدَّة ، وتجري من باب إلى باب وتضطرب يدها في الإغلاق كأنها تُحاول سدَّ الأبواب لا إغلاقها فقط (١) .

{ ٨ } إنَّما قالت: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده ، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانيّة ، ولم تعُدْ لا مَلَكَة ولا امرأة ، بل أنوثة حيوانيَّة صرفة متكشِّفة مصرِّحة ، كما تكون أنثى الحيوان في أشد اهتياجها وغليانها ، فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ، ولم يبقَ وراء ذلك شيء تستطيعه ، أو تعرضه بدأت من ثمَّ عظمة الرجولة السامية المتمكِّنة في معانيها ، فقال يوسف : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ (٢) .

{ ٩ } أنَّ يوسف أراها أنه لم يكن خادمًا عاديًا ، بل هو فتى ذو خطر كبير ، وشأن عظيم ، وأنَّ الله تعالى سيختاره لخدمته قبل أن تصطفيه امرأة العزيز لقضاء لبانتها ، وأنه أجلّ وأعظم من أن يكون خادمًا لامرأة شهوانيّة ترضى عنه إذا هو خالف ربَّه ومولاه ، وتغضب عليه إذا هو اعتصم وحافظ على أخلاقه ودينه (٣) .

{ ١٠ } أنَّ الواجب عند الدعاء إلى المعصية الاستعاذة بالله من ذلك ؛ ليعصمه منها ، ويدخل فيه دعاء الشيطان ، ودعاء شياطين الإنس ، ودعاء هوى النفس (٤) .

{ ١١ } أنَّ همَّه عليه السلام ، كان خطرات فتركه لله فأثابه عليه ، وأما همُّها فكان همّ إصرار وفعل بذلت معه قصارى جهدها ، فلم تصل إليه ، فلم يستو الهمَّان .

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) « وحي القلم » (١/١١٤) .
(٣) « دعوة الرسل » (ص ١٠٢) .
(٤) محمود شلبي (ص٤٧) .

قال أحمد بن حنبل - رحمه الله - :

الهم همَّان : هم خطرات ، وهمّ إصرار ، فهم الخطرات لا يُؤاخذ به ، وهمّ الإصرار يُؤاخذ به ، وأنَّ همَّه مما يرقيه إلى الله زلفى ؛ لأن الهمَّ داعٍ من دواعي النَّفس الأمارة بالسوء ، وهو طبيعة لأغلب الناس ، فلمَّا قابل بينه وبين محبَّة الله وخشيته داعي النَّفس والهوى ، فكان ممن ﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النازعات : ٤٠] ، ومن السَّبعة الذين يُظلهم الله في ظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظله ، أحدهم دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ، وإنَّما الهم الذي يُساكنه ويصير عزما ربَّما اقترن بالفعل [١] .

[١٢] أنَّ من دخل الإيمان قلبه ، وكان مُخلصًا لله في جميع أموره ، فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء ، وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه ، وإخلاصه لقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ على قراءة من كسر اللام فى « المخلصين » ، ومن قرأها بفتح اللام ، فإنه من إخلاص الله إيَّاه ، وهو متضمّن لإخلاصه هو بنفسه ، فلما أخلص عمله أخلصه الله وخلَّصه من السوء والفحشاء [٢] .

[١٣] في الآية : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ أيضًا شهد الله فيها على طهارة يوسف (٤) مرَّات :

(أ) ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة .

(ب) قوله : ﴿ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ ، أي وكذلك لنصرف عنه الفحشاء .

---

(١) « تفيسر السعدي »(ص ٣٦٤) .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(جـ) قوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ، على أنه تعالى قال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

(د) قوله : ﴿ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ، فبكسر اللام معناه يدل على كونه آتيًا بالطَّاعات والقربات مع صفة الإخلاص ، وبفتح اللام على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته [١] .

[١٤] في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ استفزازًا للعزيز ، وإشعالاً لنار الغيرة فيه ؛ لأن فتاه أراد سوءًا بأهله ، ولو قالت : « ما جزاء من أراد بي سوءًا » لفات ذلك الغرض المصنوع ، وتُلفتنا الآية من جهة أخرى إلى أن امرأة العزيز كانت صاحبة نفوذ عليه وسلطان ودلال ، حتَّى اجترأت أن تُصدر حكم الجزاء على يوسف من عندها هي ولم تنظر للحكم من زوجها ، فقد اجترأت بالحكم بشيئين : السجن ليوسف ، أو العذاب الأليم له ، ولو أنَّها كانت امرأة غير مُسيطرة ، لأبلغت زوجها الحادث مجرّدًا عن إصدار عقوبة ، وفات هذه المرأة المدافعة عن الشرف المزعوم والمصنوع ، فاتها أن ثمَّ إلهًا يرقبها ، وربًا هو لها بالمرصاد إنه الله سبحانه وتعالى النصير لمن أطاعه في وقت الكرب والشدّة والكرب والبهتان ، وجاهد في سبيله أنه سبحانه وتعالى سيُخلِّص عبده يوسف من هذا الخطب فيخرج وضّاء الجبين أبيض الصَّحيفة ، وأن براءته ستظهر على لسان الشاهد من أهلها ، ويضمحل افتراؤها الذي ألصقته بيوسف ، وسيشهد ببراءته النسوة اللاتي ستجمعهن في المستقبل ، وستعترف هي بنفسها فيما بعد ﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ

---

(١) « أضواء البيان » للشنقيطي (٣/ ٥٧) نقلاً عن الرازي .

﴿ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف : ٥١] ، وهكذا ينتصر الحق على يد يوسف ، على باطل امرأة العزيز فيُدمغه ، ويبوء يوسف بالعزَّة والطهر والكرامة وتبوء هي بالخزي وسوء السيرة والندامة .

[١٥] في الآية ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ الآية وما بعدها ، إنما قدم أمارة صدقها ؛ لأنه مما يحبه سيدها ، فهو في الظاهر اهتمام بها ، وفي الحقيقة تقرير لكذبها مرَّتين : الأولى باللزوم ، والثانية بالمطابقة [١] .

[١٦] في قوله تعالى : ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ قول يوسف عليه السلام للحق بعد أن قالت فيه ما قالت ، واتَّهمته عند زوجها بأنه أراد بها سوءًا، واقترحت على العزيز عقوبة ، لكن يوسف لم يجد بداً من أن يقول ، هي أنَّها راودته عن نفسه ، وهي كلمة جريئة من خادم لسيده أمام مخدومته ، من شأنها أن تصدر من قلب مؤمن مطمئن ، ومن شأنها أن تدل على صدق قائلها ، ولو كان يوسف على ريبة من جهة نفسه ما استطاع أن يواجه امرأة العزيز في حضرة زوجها بذلك القول ، وأن يبهتها ذلك البهت ، ولكنه الحق لا يخشى باطلا ، ولا يعمل حسابًا لشيء ، ولا يُحابي ولا يُراجي ، لم يبالِ يوسف بكل ذلك ، بل قال الحق ، والحق أحق أن يُقال ، ولو أن امرأة العزيز لم تُبادر يوسف بتلك التهمة أمام زوجها لاستحى يوسف أن يقول ما قال لزوجها ، ولكتم عليها تلك الفعلة ، ولكنها بدأت « والبادئ أظلم » ، بدأت فقالت فيه الباطل ، فاضطر أن يقول فيها الحق [٢] .

---

(١) « نظم الدرر »(٤/ ٣٥) .

(٢) « دعوة الرسل »(ص ١٠٥، ١٠٦) .

{ ١٧ } قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ من كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ هذه الآية إذا ضُمَّت لها آية أخرى حصل بذلك بيان أن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان وأن الآية المذكورة هي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ {النساء : ٧٦ } يدل على أنَّ كيدهنَّ أعظم من كيده (*) .

وقال الأديب الحسن بن أبو الحسن الشنقيطي :

مـا استعـظم الإله كـيدهـنَّه إلا لأنـهـنَّ هـنَّ هُـنَّـه (١)

{ ١٨ } الحذر من الخلوة بالنسـاء اللائي يخشى منهن الفتنة ، والحـذر أيضًا من المحبَّة التي يخـشى ضررها ؛ فإنَّ امرأة العزيز جرى منهـا ما جرى بسبب انفـرادها بيوسف وحـبِّهـا الشديـد له الذي ما تركـها حـتَّى راودته تلك المراودة، ثمَّ كذبت عليه فسُجن بسببها مدَّة طويلة (٢) .

{ ١٩ } دياثة الزوج ، ومن الآيات يتـبـيَّن أنَّ العـزيز زوجهـا كـان ديوثًا بدليل قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ من دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ الآية ، وبعد المحـاكمة وظهـور الحقّ بجانب يوسف عليه السلام ما زاد على قوله ليوسف : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ ، وقال لزوجته : ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ وهذا دافع من أكـبر الدوافع لاقـتراف هذه الفـاحشة مـا دام الشخص المفـروض الذي له هذه المرأة لا يُمانع بذلك (٣) .

(*) الذي عليه المفسرون أن كيد الشيطان أقوى من كيد الإنسان ، ومراد الآية ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ أمام كيد الله تعالى . « أضواء البيان » المجلد العاشر .

(١) « أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٧٢) .

(٢) « تفسير السعدي » (ص ٣٦٤) .

(٣) عبد الحميد البلالي « الفتن في حياة يوسف عليه السلام » (ص١٧ ، ١٨) .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥) ﴾ [يوسف : ٣٠ - ٣٥] .

ما يُستفاد من الآيات :

[١] أن العمل من الإنسان سواء أكان حسنًا أم قبيحًا ، فإنه لابد أن ينتشر الخبر عنه بين الناس ، وخاصة عند الأقران ، فامرأة العزيز ، ومراودتها ليوسف عليه السلام ، هذا الخبر انتشر بين صواحبها كما قال الشاعر :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَمُ

مع ملاحظة أنَّها جاهرت بهذا الحديث واعترفت .

[٢] في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ لقد صوَّرت هذه الآية أخلاق النساء خير تصوير في مثل هذا الموقف من الغمز واللمز والتصريح ، فقد أخذت تحكي بعضهن لبعض سيرة امرأة العزيز ، طعنة للزوج المسمَّى عزيز مصر ، فلينظر إلى امرأته كيف لوَّثت شرفه ولطَّخت سمعته [1] .

---

(١) « يوسف في القرآن » أحمد ماهر البقري (ص ٢٨) .

{ ٣ } لم يسمّوها باسمها ، بل ذكروها بالوصف الذي ينادي عليها بقبيح فعلها، لكونها ذات بعل ، فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها ممن لا زوج لها .

{ ٤ } أنَّ زوجها عزيز مصر ورئيسها وكبيرها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

{ ٥ } أنَّه فتاها الذي هو في بيتها ، فحكمه حكم أهل البيت ، بخلاف من طلب ذلك من الأجنبي البعيد .

{ ٦ } أنَّها قد بلغ بها العشق له كل مبلغ حتَّى وصل حبّها له إلى شغاف قلبها .

{ ٧ } أنَّ في ضمن هذا أنه أعف منها وأبر وأوفى حيث كانت هي المراودة الطالبة ، وهو الممتنع ، عفافًا وكرمًا وحياء ، وهذا غاية الذمِّ لها (١) .

{ ٨ } ما كان عليه يوسف عليه السلام من الجمال الظاهر والباطن ، فإن جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب للنساء اللاتي جمعتهن حين لمنها على ذلك أن قطَّعن أيديهن ، وقلن : ﴿ **حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ وأما جماله الباطن ، فهو العفَّة العظيمة عن المعصية مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته ، ولهذا قالت امرأة العزيز : ﴿ **وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ** ﴾ وقالت بعد ذلك : ﴿ **الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)** ﴾ { يوسف : ٥١ } ، وقالت النسوة : ﴿ **حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ** ﴾ { يوسف : ٥١ } من هذا الجمال الظاهر والجمال الباطن في صفاء العقيدة والأخلاق يتَّضح لنا أن الشاب مهما كان جميل الظاهر من حسن الوجه والجسم مع أنه سيئ الأخلاق وفاسد العقيدة والسلوك أنَّه في الحقيقة قبيح لا يُساوي عند الله شيئًا ، وأن الشاب

---

(١) أحمد عز الدين نقلاً عن كتاب « الجواب الكافي » لابن القيّم .

الصالح حسن الخُلُق وصحيح الاعتقاد ذا البشرة السمراء ، أفضل عند الله من الأول .

وصدق الشاعر :

جمال الوجه مع قبح النفوس — كقنديل على قبر المجوس

وقال آخر :

ولا ينفعُ الفتيان حسن وجوههم — إذا كانت الأعراض غير حسانِ

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى — فما كل مصقول الحديد يماني

وإن أكرم الناس عند الله أتقاهم .

{ ٩ } روى مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بيوسف عليه السلام ليلة الإسراء في السماء الثالثة ، قال : « **فإذا هو قد أُعْطِي شطر الحسن** » [(١)] .

{ ١٠ } في قوله تعالى : ﴿ **وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** ﴾ نلحظ أنَّ لومهن عاد غدرًا ، والتَّضعيف في ﴿ **قَطَّعْنَ** ﴾ يدل على التَّكثير ، فكأن السكين كانت تقع على يد إحداهن فتجرها فترفعها عن يدها بطبعها ، ثم يغلبها الدهش فتقع على موضع آخر وهكذا . . ، وإعادة الإشارة في قولهن : ﴿ **مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ دفع لإمكان الغلط [(٢)] .

{ ١١ } أنَّ مُجاهرة العبد بالمعصية ووقاحته أمام الناس بالتَّحدث بها لم يزده بذلك إلا سقوطًا في أعينهم واحتقارًا وبُعدًا عن الله ، ومهما كان له منصب وسلطة وجاه ، فلن ينفعه ذلك ، وإن كان في شوامخ القصور منعّما ومترفًا فهو في الحقيقة محتقر ذليل مُهان ، وأن العبد المتقي العفيف

---

(١) « صحيح مسلم كتاب الإيمان » (١/ ١٠٠) .
(٢) « نظم الدرر » (٤/ ٣٥) .

الذي يستعلي به إيمانه على الحرام والمعصية ، هو في الحقيقة قوي وعظيم له مكانة في النفوس ومحبَّة ومودَّة ، وإن فقيرًا غريب يسكن في ظلمات السجون ، **كما قيل :**

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته يوم القتال ونار الحرب تشتعلُ
لكن من غض طرفًا أو ثنى قدما عن الحرام فذاك الفارسُ البطلُ

[١٢] قولها : ﴿ **فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ إنها سذاجة نفس تُصرّح بالمراودة ثم تُريد أن تُنكّل بالفتى ، لقد صدر منها فعل شرير ، وأقوال شريرة « السجن ، عذاب أليم ، وليكونن من الصاغرين » فهل هذه أخلاق علية القوم ؟ أما هو فقال : ﴿ **مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ** ﴾ ، ﴿ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾ ، ﴿ **السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾ [1] .

[١٣] في قولها أيضًا : ﴿ **فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ** ﴾ إشارة إلى الفتى العالي الرتبة جدًا ، وحين علمت أنَّهن عذرنها قالت مؤكدة استلذاذًا بالتَّهتك في حبه : ﴿ **وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ** ﴾ تحقّق المراودة ﴿ **فَاسْتَعْصَمَ** ﴾ فامتنع عليَّ واشتدَّ اعتصامه ، وما أنا براجعة عنه ، وتوعَّدته وهو يسمع ؛ لعله يلين ، فقالت : ﴿ **وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ ، ومن ثمَّ كان عزمها على سجن يوسف أقوى من العزم على إذلاله بدلالة أنَّها أكَّدت الفعل ﴿ **لَيُسْجَنَنَّ** ﴾ بالنون الثقيلة ، وأمَّا الإذلال ليوسف وإصغاره فقد استخدمت النون الخفيفة في ﴿ **وَلَيَكُونًا** ﴾ ، وأنَّ الزيادة في تأكيد السجن ؛ لأنه يلزم إبعاده ، وإبعاد الحبيب أولى

---

(١) « يوسف في القرآن » أحمد ماهر (ص ٢٨ ، ٣١) .

بالإكثار من إهانته .

إنّ يوسف وقع في هول عظيم ، نسـاء ذوات مناصب ، جميـلات يتألبن عليه ، ويمكرن به من تنويع القـول في الترغيب والتَّرهيب عـالمًا بأن القوة البشـريّة تضعف عن حمل مـثل هذا ، إلاَّ بتأييد عظيم ، فـهتف يوسف داعيًا الله العظيم الذي بيده ملكوت كل شيء أن يُخلصه مما هو فيه فقال: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ إن السجن لا يتصـوَّر حبَّه عادة ، والمكث فـيه غير مـرغوب فيه ، ولكـن يوسف فضَّله لما علم من سوء عاقبة المعصية بعـد سرعة انقضاء اللذَّة ، وهذه العبارة تدل على غاية البغض لموافقتها ، ففضَّل السجن ؛ لأنه أخف الضررين ، واستجاب الله وخلَّصه منهن (١) .

{ ١٤ } أنَّ يوسف عليه السلام اختـار السجن على المعـصية ،فـهكذا ينبغي للعـبد إذا ابتلي بين أمـرين ، فعل المعصـية ، وعـقوبة دنيويَّة ، أن يخـتار العـقوبة الدنيويَّة على مواقعة الذنب الموجب للعـقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة ، ولهذا من علامـات الإيمان أن يكره العبد أن يعود في الكفـر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يُلقى في النار (٢) .

{ ١٥ } أنَّه ينبغي للعـبد أن يلتجئ إلى الله ويحتـمي بحماه عند وجـود أسباب المعصيـة ويتبرأ من حوله وقـوته ؛ لقول يوسف عليه السلام : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ، وهي دعوة الإنـسان العـارف ببشـريّته الذي لا يغـترّ بعـصمـته ، فـيُريدُ مـزيدًا من عناية الله وحياطته ليُعاونه ذلك على ما يعترضه من كيد وإغراء (٣) .

---

(١) « نظم الدرر » (٤/ ٣٥) .
(٢) « تفسير السعدي » (ص٣٦٤) .
(٣) « في ظلال القرآن » (٤/ ١٩٨٥) .

{ ١٦ } أنّ العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر ، وأنّ الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس - وإن كان معصية - ضارًا بصاحبه .

{ ١٧ } أنّ في قول يوسف عليه السلام : ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ ولم يقل : « مما تدعوني إليه » ، ما يدل على أنه واجه فتنة عظيمة ومحنة أشد وإغراءات مُتعدّدة لا من جهة امرأة العزيز فحسب ، وإنما من هؤلاء النسوة جميعهن ، ولكنّ الله ثبَّت عبده يوسف عليه السلام ورزقه الصبر ، فاللهم ثبّتنا على دينك حتّى نلقاك ونعوذ بك من كل فتنة يا أرحم الراحمين .

{ ١٨ } أنّ الدعاء سلاح الرسل والأنبياء وأتباعهم من الصالحين والعلماء والدعاة المُصلحين ، فينبغي للعبد أن لا ينفك عنه في كل الأحوال في المسرة والمضرة ، والشدّة والرخاء .

{ ١٩ } دعاء يوسف بالسجن وتفضيله على الذنب كلمة قد تبدو تلقائيّة للرد على امرأة توعَّدته بالسجن ولكنها في أعماق النفس اليوسفية ، لابد أن نتلمّس بواعثها ، لقد فاضل الشاب بين السجن والصبوة إلى النساء ، ففضل لديه السجن على ما فيه من عذاب ، كما قال أحد المسجونين واصفًا آلام السجن وهوله :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلسنا من الأموات فيها ولا الأحيا

إذا جاءنا السجّان يومًا لحاجة ... عجبنا وقلنا : جاء هذا من الدنيا

فها هو يوسف قد فضّله على المعصية لأن :

(أ) السجن عذاب بدني ، والوقوع في الزنا عذاب نفسي ، الأول موقوت، والثاني ندم دائم يُلح على نفسه ما بقي فيه نفس .

(ب) هو في السجن مظلوم ، أمـا عند ارتكابه الزنا ، فيعتـبر ظالمًا ، فلا ذنب له ليُسجن إلا دفاعه عن الفضيلة ، أما جريمة الزنا فقد خان فيها ربه الذي أحسن مثواه .

(جـ) السجن قد يكون مجالاً لذكر الله ، وللدعاء إليه سبحانه أن يُنجيه ، أما المضاجعـة غير الشريفة - فتأمل - عمل غـير شريف ، ولهو عن ذكر الله .

(د) هو في السجن سيد نفسه ، وفي الثانية عبد شهواته ونسائه .

(هـ) سيخرج من السـجن كما هو ، وإن لم تقوَ في نفسـه الفضائل ، أما في الثانية فسيخرج تافهًا يجري وراء ملذَّاته جاهلاً لا يرقى إلى رفعة .

(و) وتأمَّل حسن التعـبير : ﴿ **السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾ لم يُصرِّح بما يدعونه إليه ؛ لأن الله يعلمـه من جهة ، ولأن خلق الحياء غمره من جهة أخرى ، وتأمل استعمال الفعل مضارعًا والفاعل جمعًا في ﴿ **يَدْعُونَنِي** ﴾ مما يدل على استمرار الإغـواء وتجدّده منهن كثيرًا حيال شاب ، وتأمَّل اجتماع الفعل والفاعل والمفعول في كلمة واحدة يدل على احتكاكهن به وشدَّة إغرائهنَّ له .

[٢ .] إنَّمـا كان السـجن في غاية المكروهيّـة وما دعـونه في غاية المطلوبـيّة ، وكانت المشـقَّة أحب إلى يوسف من اللذَّة ؛ لأن تلك اللذة كـان يسبقـها آلام عظيمة وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة ، وذلك المكروه وهو اختـيار السجن يعـقبه سعـادات عظيمة ، وهي المدح في الدنيـا والثواب الدائم في الآخـرة ، فلهـذا السبب ، قـال : ﴿ **السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾ [1].

---

(١) « تفسير الفخر الرازي » (١٨/ ١٣١) .

{ ٢١ } إنَّ دعاء يوسف عليه السلام لربّه بالسجن فيه عِبَر ؛ لأن السجن لا يضيع حقًّا، بل يُثبته ، ولا يُزعزع عقيدة ، بل يقوّيها ويُؤيدها ، والسجن سكن العظماء ، ومأوى المصلحين وأرباب المبادئ ، وكم أعان السجن على حق ومحَّص من نفوس ، وأعدَّها لأن تكون قويَّة مستعدَّة للطوارئ والأحداث وكم خلق السجن لأنصار الباطل أعداء ، ولأنصار الحق أولياء ، وضد حزب الشيطان قوَّة لا قبل لهم بها ، وما من مبدأ من المبادئ إلاَّ وهو في حاجة إلى ما يُنمِّيه ويضع فيه إكسير الحياة ، ولا شيء أنفع للمبادئ من اضطهادها ، وللعقائد والدعوات من الفتن التي تمر بها [١] .

{ ٢٢ } لقد فزع يوسف إلى ربِّه جلَّ جلاله في ذلك الوقت العصيب ، ورجع إلى الله في وقت اشتدَّت فيه ظلمات الفتنة ، واستفحل أمر النسوة ، وكاد أن يطغى فيه حزب الشيطان على حزب الرحمن ، فخلا الجو لامرأة العزيز ، وأمنت كلام النسوة ، واطمأنَّت من جهة زوجها ؛ لأنها جرَّبت عليه ضعف الغيرة ، فهدَّدت وتوعَّدت ، وأرغت وأزبدت ، وقالت له بلغة الآمر الذي لا يُخالف ، إنك إن لم تفعل ما آمرك به سجنتك وعذَّبتك وأنزلتك من ذلك البيت الرفيع إلى درجة المجرمين ، فيُخاطب ربَّه بأن السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه ، ثم يلجأ إليه أن يصرف عنه كيدهن بلطفه وتدبيره ، وأنه إن لم يفعل الله – وهو قادر ولابد – يميل يوسف إليهن ويدخل في عداد الجاهلين الذين لا يعملون بما يعلمون ، وهو في معنى الدعاء من يوسف في وقت الشدَّة ، وجدير بمن دعا ربه في ذلك الوقت ليُخلصه من محنته ، ويُنقذه من فتنته ، ولا همَّ له من طلب الخلاص إلاَّ إرضاء ربه ، والوقوف عند حدوده جدير بمن لجأ إلى

---

(١) « دعوة الرسل إلى الله تعالى » (ص١١١) .

ربّه في ذلك الوقت أن يستجيب الله دعوته ، ويعطيه ما طلب ، ولذلك قال : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)** ﴾ (١) .

[٢٣] **قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -:** وفي قول يوسف عليه السلام : ﴿ **رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾ عبرتان :

١ - اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي .

٢ - طلب سؤال الله ودعائه أن يثبِّت القلب على دينه ، ويصرفه إلى طاعته ، وإلاَّ فإذا لم يُثبِّت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته ، صبا إلى الآمرين بالذنوب ، وصار من الجاهلين ، ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يُثبِّت القلب على الإيمان والطاعة ، وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطَّاعة ، وهذا كقول موسى عليه السلام ، لقومه : ﴿ **اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)** ﴾ لما قال فرعون : ﴿ **سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)** ﴾ [الأعراف : ١٢٧ ، ١٢٨] .

وكذلك قوله : ﴿ **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)** ﴾ [النحل : ٤١ ، ٤٢] ، ومنه قول يوسف عليه السلام : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)** ﴾ [يوسف : ٩٠] وهو نظير قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ**

---

(١) المصدر نفسه (ص ١١٢) .

عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦) ﴾ [آل عمران : ١٨٦] ، وقوله : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) ﴾ [آل عمران : ١٢٥] .

فلابد من التقوى بفعل الأمور والصبر على المقدور ، كما فعل يوسف عليه السلام ، اتَّقى بالعفَّة عن الفاحشة ، وصبر على أذاهم بالمراودة والحبس ، واستعان بالله ودعاه ، حتَّى يُثَبِّته على العفَّة ، فتوكَّل عليه أن يصرف عنه كيدهنَّ ، وصبر على الحبس ، وهذا كما قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت : ١٠] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) ﴾ [الحج : ١٠ - ١٣] ، فإنه لابد من أذى لكل من كان في الدنيا ، فإن لم يصبر على الأذى في طاعة الله ، بل اختار المعصية ، كان ما يحصل له من الشر أعظم مما فرَّ منه بكثير ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة : ٤٩] ، ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة ، والعز في معصية الله ، كما فعل يوسف عليه السلام ، وغيره من الأنبياء والصالحين كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة ، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيمًا وسرورًا ، كما أنَّ ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزنًا وثبورًا ؛ فيوسف خاف الله من الذنوب ، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله ، بل آثر الحبس والأذى مع الطَّاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات ، ونيل الرياسة والمال مع المعصية ، فإنَّه لو

وافق امرأة العزيز نال الشهوة وأكرمته المرأة بالمال والرياسة ، وزوجها في طاعتها ، فاختار يوسف الذل والحبس ، وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة مع الطّاعة (١) .

{ ٢٤ } السجن إذا وفّر دواعي مرضاة الله تعالى كان أفضل من مجتمع لا يوفرها .

{ ٢٥ } أنه عليه السلام يضرب للإنسانيّة أينما وجدت أكرم الأمثال للمحافظة على طهارة الحياة وصفائها ونقائها واختيار الأساليب التي توفّر أسباب هذا الصفاء وذلك النقاء ، فالمجتمع إذا بلغ مرحلة من الفساد لا تُمكّن من الدعوة إلى الله تعالى ، ولا تترك للمؤمن القدرة على التّمسك بالعروة الوثقى ، وساد هذا المجتمع شحٌ مطاع وهوى مُتّبع ، وحب لذّة عاجلة ، وتحكّم الأراذل في الأمور وسدّ الشر طرائق الخير ، وكان السجن يوفّر أسباب الكمال والدعوة إليه أكثر مما يوفره هذا المجتمع ، كان السجن في هذه الحالة أفضل من هذا المجتمع مهما وفّر للإنسان من دواعي التّرف والملذّات فمدار الحياة الكريمة إذن لا على توفير أسباب الانقطاع عن الله تعالى من شهوات وشؤون دنيويّة ، بل المدار على توفير أسباب مرضاته تعالى وتأمينها ، فتدور الحياة الكريمة معها حيث دارت .

{ ٢٦ } إن لفظ ﴿ أَحَبُّ ﴾ هنا يُعطي أنه عليه السلام لم يُحب السجن لذاته ، بل أحبه سعيًا في مرضاة الله تعالى والدعوة إليه عزّ وجل وهداية الخلق إلى الصراط المستقيم .

{ ٢٧ } جاء بأفعل التّفضيل أدبًا مع الله تعالى ، فلم يجزم بطلب السجن كوسيلة وحيدة لصرف كيدهن عنه عليه السلام ، ولو فعل ذلك لوكّل إلى كل

(١) « مجموع الفتاوى » (١٥/ ٧٩) .

ما اتّكل عليه ، وفي هذه الحالة كان ولابد من وصول كيدهن إليه عليه السلام ؛ لاتّكاله في النجاة من مكرهن على هذه الوسيلة ، والأنبياء في جميع شؤونهم لا يتّكلون إلاّ على الله ، فهو عليه السلام يبذل ما في وسعه بصرفهن عنه ، ولو كان ذلك عن طريق السجن الذي يذكره على أنه أحب إليه من هذه الحياة الرَّخيصة التي ضيّقت سُبل الدعوة إلى الله تعالى بانشغاله بردّ مكرهنّ .

{ ٢٨ } ظهر في إعراضه الكامل عليه السلام وعن الدنيا وزخرفها ، وقد عرضت عليه كاملة غير منقوصة دون أن يُكلفه ذلك شيئًا ، وهذا مظهر من مظاهر إعراضه التّام عليه السلام ، عمّا يقطع عن الله تعالى ، وعدم الالتفات إليه كائنًا ما كان [1] .

{ ٢٩ } لقد وصل دعاؤه إلى الله ، فنصره جلّ وعلا بأن صرف عنه كيدهن ، أي مفعول هذا الكيد ، لحكمة بالغة ولا عجب فالله يسمع ويُجيب ، وتأمَّل : ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ ، لم يقل سبحانه : « صرفه عن كيدهن » ؛ لأن يوسف عليه السلام لديه من قوَّة الإرادة ما يجعل إزاحة الكيد عنه إلهيّاً يترتب على اعتصام يوسف أولاً [2] .

{ ٣٠ } في قوله تعالى : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ هذا الفعل بصيغته التوكيدية يذكّرنا بكلمة المرأة : ﴿ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ وهو يوحي بالزج بيوسف في غير رحمة ، وفي إهمال لشأنه ، ويزيد ذلك وضوحًا كلمة ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ، فلو كان السجن قائمًا على منطق يُحترم ، أو لعقوبة محددة معيّنة ، لقالوا السجن - مثلاً - ثلاث سنوات ، أو أربعًا أما كلمة ﴿ حِينٍ ﴾ فهي مُبهمة لمدَّة غير محدودة الزمن طال أم قصر .

---

(١) « يوسف بن يعقوب » لأحمد عز الدين ، (ص ١٩٩ - ٢٠٤) .
(٢) « يوسف في القرآن » (ص٣٢، ٣٣) .

[٣١] إن لبث الداعية في السجن يكون كرامة من الله في حقه ليتم بذلك صبره وتقواه ، فإنه بالصبر والتَّقوى نال ما نال .

[٣٢] لو لم يصبر ويتق ، بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعًا من السجن ، لم يحصل له هذا الصبر والتقوى ، وفاته الأفضل باتّفاق النَّاس [(١)] .



(١) « مجموع الفتاوى » (١٥/ ٦٩) .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ .

[يوسف : ٣٦ - ٤٠] .

ما يُستفاد من الآيات :

[١] أنه كما ينبغي على العبد عبوديّة الله في الرخاء ، فعليه عبوديّة له في الشدة ، فيوسف عليه السلام لم يزلْ يدعو إلى الله ، فلمّا دخل السجن استمرّ على ذلك ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك ومن فطنته عليه السلام أنَّه لمّا رأى فيهما قابليَّة لدعوته حيث ظنَّا فيه الظن الحسن وقالا : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وأتياه ليعبّر لهما رؤياهما، فرآهما متشوّقين لتعبيرها عنده ، فرأى ذلك فرصة ، فانتهزها ودعاهما إلى الله تعالى قبل أن يُعبّر لهما رؤياهما؛ ليكون أنجح لمقصوده ، وأقرن لحصول مطلوبه ، وبيَّن لهما أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيهما من الكمال والعلم هو إيمانه بالله واليوم الآخر ، وهذا دعاء لهما بلسان الحال ، ثم دعاهما بالمقال ، وبيَّن فساد الشرك وبرهن عليه ، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه [١] .

---

(١) « تفسير السعدي » (ص ٣٦٥) .

[٢] أنَّ الداعية يكون موضع ثقة من الناس حتَّى ولو كانوا على غير دين الله ، والنبي ﷺ كـان يُدعى الصـادق الأمين ، وقـد أودع من قـريش عنده ودائع لهم مع أنه عدوّ لهـم ، وأن الرجل الكافر والفاجـر والفاسق ليس موضع ثقة الناس بدليل توسّم الفتيين الخير والصَّلاح في يوسف عليه السلام في السجن وقصِّهما رُؤييهما عليه .

[٣] أنَّ على الداعي إلى الله أن يستخدم في كلامه مع النَّاس الأسلوب الهادئ اللين وأسلوب التَّبـشير لا التَّنفير ، وأن يبـتعد عن التَّصـريح بالأسماء ، ولكن يوضح مـسـاوئ أهل البـاطل الفـاسـدة ، ويكـشف مـسـاوئهم للمدعـوّين، ويُبيّن عظمة عقـيدة التَّوحيـد ، كما قال يوسف للفـتيين : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ وهذا الأسلوب الجميل في التَّعبير هو ما كان يستخدمه الرسول ﷺ في عبارة « ما بال أقوام » وهو أسلوب القرآن الكريم .

[٤] أنه يجوز للرجل القـدوة أن يذكر بعض مزايا منهجـه ونعم الله عليه التي أسداها إليه ، ويـذكر ذلك للمدعوّين للاقـتداء به ، ولترغيبـهم في اتِّباع دين الله ، وأنَّ ذلك ليس من الريـاء ، كمـا قـال يوسف عليه السلام : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ،و ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .

[٥] أنَّ الإيمان باليـوم الآخر من أعظم أركان الإيمان ، وأن له الأثـر القويّ في تقويم سلوك الفرد ، وما اعوجَّ من أقواله وأفعاله ومعتقداته .

[٦] أنَّ على الداعـيـة أن يستـخـدم المدخل اللطيف في خطابه وحـديثـه مع مُخـاطبيـه لأول مرَّة ويسيـر خطوة خطوة بتدرج دون التَّـوغل في الكلام جملة ودفعـة واحدة ، وأن يضرب الأمثلة من الواقع الفـاسد الذي يعيش فيـه الناس ويُوازن بينه وبين الماضي المشـرق ؛ ليُقلع الناس عن الفـساد ،

ويستشرفوا إلى الماضي المُضيء .

{ ٧ } أنَّ دعوة يوسف في السجن للفتيين قبل تعبيره للرؤيا هذه الدعوة قد جمعت أصول الإيمان الثلاثة ، وهي : الإيمان بالله ، وتوحيده ، والإيمان باليوم الآخر ، وهل يوسف جاءته الرسالة وهو في السجن ؟ ، ولما لم يجد معه سوى صاحبيه دعاهما إلى أصول الإيمان الثلاثة ، أو أن ذلك كان ملَّة لآبائه ، فأخذه عنهم ودعا دعوته ؟ ، كلٌّ محتمل ، وسواء قلنا إن يوسف نبي في ذلك الوقت ، أم لم ينتبأ ، فإنه افترص هذه الفرصة ، وأخذ يدعو من معه إلى دين الأنبياء جميعهم ، وقد تقدَّم بذلك بين يدي تأويل رؤيا الصاحبين ؛ لأنه لو أجابهما إلى ما طلبا أولاً لضاعت الفرصة عليه ، وما استطاع أن يُبلغهما التوحيد والإيمان بالله وثوابه وعقابه ، ولاسيما أنَّ أحد الفتيين قد تأوَّل له رؤيا تأويلاً يُزعجه ، وهو أنه يُصلَب فتأكل الطير من رأسه ، فيوسف عليه السلام يُرينا أن صاحب المبدأ أو العقيدة من شأنه أن ينتهز الفرصة لنشر مبدئه وعقيدته ، ومن شأنه أنه إذا طُولب بشيء أو سُئل عنه يخلق لها المناسبة لنشرها بين الناس ، وفي الأمثال : «إن صحَّ منك الهوى أرشدت للحيل » ، ويُرينا يوسف أن لا مانع من تعريف العالم نفسه بالناس ، وأن يُخبرهم أنه يُحسن كذا وكذا من العلم ، وليس في ذلك غضاضة على نفسه ، فيوسف لم يجد بأسًا في أن يقول للصاحبين : ﴿ **لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي** ﴾ ؛ ليلفت نظرهما إليه ، ويحملهما على التَّوجه له ، وقوله : ﴿ **إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ ، تحريض لهما على الإيمان بالله ؛ لأن عاقبة المؤمن به أن يفقهه الله في دينه كما علَّم يوسف عليه السلام [١] .

---

(١) « دعوة الرسل » (ص ١١٦) .

[٨] أنَّ الداعي إلى الله مهما بذل من جهود في مجال الدَّعوة إلى الله والإحسان إلى الناس ، ومهما بلغ من مكانة عُليا في العلم والخير والفضل والصَّلاح والشهرة ، فإنَّما يرجع ذلك كله أنه من فضل الله ومن نعمه تعالى ينبغي شكرها ، والتَّواضع لله والاعتراف لُمسديها عليه ، وهو الله سبحانه وتعالى كما قال يوسف : ﴿ **ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي** ﴾ ، وكما قاله الغلام المؤمن لوزير الملك الذي كان أعمى فشفاه الله قائلاً : «**إني لا أشفي أحدًا إنَّما يشفي الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله فشفاه الله** » [١] .

[٩] أنَّ نعم الله وأجلّها نعمة الإسلام ، فلا يُدرك كنهها ويشكر الله عليها إلاَّ القليل من الناس : ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ ، ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** (١٣) ﴾ [سبأ : ١٣] .

[١٠] أنَّ البيت الصالح والأسرة الصالحة لهما الأثر الطيب في حياة الفرد واستقامته وسلوكه .

[١١] في الآية : ﴿ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ من العبر ما يلي :

١ - إنَّ الفراغ العقدي مُهلك ، وأن ترك الملَّة الفاسدة والاكتفاء بهذا الترك لا يُنجي الإنسان من الهلاك ؛ لأن الترك وحده لا يعني في حد ذاته الهداية إلى الصراط المستقيم ، وما زاغ البصر إلاَّ حين خلت القلوب من العقيدة الصحيحة من الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فإن فراغ القلوب منها هو سرّ الكوارث التي حاقت بالبشريّة ، وإن العامل الوحيد الذي يزج بالإنسان في هذا الفراغ المهلك هو التَّعلق بالدنيا ،

---

(١) « صحيح مسلم » كتاب الزهد والرقائق (٨/ ٢٣٠) .

ولهذا التَّعلق وجهان :

(أ) إحاطة حب الدنيا بالقلب إلى درجة تصرف عن الخالق نهائيًا .

(ب) التَّعلق بالدنيا تعلقًا يملك شغاف القلب ويطغى على حب الإنسان لله تعالى .

إنَّ كارثة كل مجتمع بشري تحل عند محاولة استبدال الإسلام بدين آخر، وعمليَّة الاستبدال هذه تبدأ عندما يضعف تعلق الإنسان بالله تعالى، ويُقابل هذا الضَّعف ازدياد في التَّعلق بالدنيا ، حينئذ تبدأ عمليَّة حل عرى الإسلام عروة عروة ، وكل عروة انحلَّت تحل محلها عروة بديلة تربط الإنسان بالدنيا ، حتَّى إذا ما تجرَّد الإنسان - والعياذ بالله - من التَّعلق بالله عزَّ وجل يكون قد اكتمل صرحه الدنيوي الذي يربطه من جميع جهاته بالدنيا ، فلا يصدر عنه في جميع شؤونه إلا ما يقطع عن الله جلَّ ثناؤه ، هذا الصنف من البشر يكون قد خلع ربقة العقيدة الصحيحة التي تصد عنه هجمات جحافل قوى الظلام ، وهو إذا تجرَّد من الوقاية الوحيدة التي يُمكنها أن تقيه شر مصير رهيب يُصبح ريشة في مهب رياح الفساد التي تعتوره من كل صرح دنيوي مسيطر على وجوده ، وبعد أن تسقى ذاته بظلمات هذه الصروح يُصبح جندياً من جنود الظلمات لا يرتاح إلاَّ في عقائد أهلها ، ولا يفرح إلاَّ بهم ولا يحزن إلاَّ حين يبتعد عنهم ، وأي خير يُرجى من هذا الذي نسى خالقه ورازقه والمُنعم عليه بكل نعمة في الوجود ؟ وأي خير يُنتظر ممن أعرض عن مولاه وأعرض عما نزل من الحق إذ جاء ، واستبداله بضلالات صاغتها الشياطين من الإنس والجن لتحل محل الوحي الإلهي ؟ ، أي نفع يُرجى من هذا الذي يُناصب خالقه العداء ، فيصرف عمره كله لتحقيق هذه الغاية وتأكيدها ، ويهوى إلى درجة من الانحطاط تجعل

تصرفَّـاته الغريزيّة كلها قـاطعة عن الله تعالى ؟ أي خـير يُنتظر من هذا الذي يُناصب صـفـوة الخلق العـداء ، ويلقي بكل ودّه إلى أعـداء الله تعالى وأعداء البشرية ؟ أي خـير فيمن أعرض عن النور المبين ، وألقى بنفسه بين يدي الشياطين يلعبون به كما تلعب الصبية بالكرة ، يسومونه سوء العـذاب ويسوقونه إلى أسـوأ مصيـر مع الاستسـلام الكلي لدعاة الشر؟ إنَّ العقل يُؤكد أنَّ مثل هذا الصنف المسـعور من البشر إنَّما يوجه حياته توجـيهًا يُفضي به وبأمـثاله إلى نهاية مراحل الانحـطاط البشري لانقطاعه الكلي عن الكمال .

٢ – نجاة الإنسان معلَّقة باتِّباعه للأنبياء والمرسلين [١] .

{ ١٢ } أنَّ على الداعي أن يسـتخدم الخطاب المشـوّق لمن يدعوهم والتَّـرغيب ، وأن تكون فاتحة الخطاب شـهيَّة جذابة ، واستخدام الدليل الـعقلي خاصة في مخاطبة المدعوين من غير المسلمين ، كما في قوله تعالى : ﴿ **أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ ، و ﴿ **لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ** ﴾ .

{ ١٣ } قوله تعالى : ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ في الآية ما يلي :

(أ) لقد رأى يوسف أنَّ السـجن خير من حـياة العبث واللهو والشَّـهوة ، وفقد النعيم ، ولكن صاحبيه يتمنيان لاشك لو لم يكونا في السجن، فهمـا لا يرقيان لمستـوى يوسف النفسي والعقدي ، ولكنـه يُشير إلى السجن ؛ ليُشير في الوقت نفسه أنه لا أحد ينفع من البشر ، وأنَّ الله قهَّار – هكذا بصيغة المبالغة – لهؤلاء الطغاة الجبابرة .

---

(١) أحمد عز الدين (ص ٢١٤) .

(ب) وقد جاءت كلمة ﴿ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ لتوحي بأن لكل (رب) من هذا الجمع عالمًا في الاستبداد والأهواء يختار الإنسان في إرضائهم جميعًا، وإذا كان فعلى حساب آدميّته ، ولكن الله غالب على أمره وهو جلّ وعلا أحد صمد [1] .

{ ٤٠ } أنه يبدأ بالأهم فالأهم وأنه إذا سُئل المفتي وكان السائل في حاجة وأشد لغير ما سأل عنه أنه ينبغي له أن يُعلّمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب عن سؤاله ، فإن هذا علامة على نصح المُعلِّم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه، فإنَّ يوسف لمَّا سأله الفتيان عن الرؤيا – قدَّم لها قبل تعبيرها – دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له [2] .

{ ٤١ } أنَّ الداعي عليه ألاَّ يفرط في نشر الدعوة إلى الله حتَّى في أشد نزول المحن والفتن ، فينبغي أن يدعو في هذه الشدائد ، وأنه مسؤول عن الدعوة ، وإذا ما انسدَّ باب الدعوة لعائق ما فلابد أن ينفتح له باب آخر للدعوة ، فلما ضاق الأمر برسول الله محمد ﷺ في مكَّة ذهب إلى الطَّائف ، ويوسف عليه السلام لم يكن ضيق السجن له عائقًا عن الدعوة إلى الله ونشر الخير .

{ ٤٢ } أنَّ قضية الحاكميّة لله في الإسلام قضية مهمة وعظيمة ينبغي أن تأخذ حظَّها كاملاً في جهود الداعية ، وأنها جزء مهم من عبوديَّة الله ، وهذه قضيّة غفل عنها بعض الذين يدعون إلى الله وحدوده بحذافيرها في أرض الإسلام .

وفي هذا الأمر يقول شيخ الإسلام بن تيميّة – رحمه الله – : « يجب أن يعرف أنَّ ولاية الأمر في الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام

---

(١) « يوسف في القرآن » لأحمد ماهر (ص٣٦) .
(٢) « تفسير السعدي » (ص ٣٦٥) .

للدين إلاَّ بهـا ، فإنَّ بني آدم لا تتم مـصلحـتهم إلاَّ بالاجـتمـاع لحاجـة بعـضهم إلـى بعض ، ولابد لهم عند الاجـتمـاع من رأس . . ولأن الله تعالى أوجب الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يـتم ذلك إلاَّ بقوة وإمارة وكذلك سائر ما أوجبه الله في الجـهاد والعدل وإقامة الحج والجُمع والأعياد، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوّة والإمارة » [1] .

{ ٤٣ } **فى الآيات من العبر ما يلى :**

(أ) اقتضى الحال الدعـوة على إجابة طلب صاحبي السجن ليـقترن إعلان الدعوة بآيـة دالة على صدق صاحـبهـا ، ولو تمَّ التأويل قـبل إعلان الدعوة لما كان آية للسامعين ترتبط في أذهانهم بها ، وحيث أن تأويل عليه السلام لرؤييهمـا آية من آيات نبوته ، وصدق دعوتـه ، فقد لزم ذلك تقديم بيان الدعوة على التأويل .

(ب) لو بدأ عليه السلام بتأويل رؤييهما لانصرف الذهن نهائيًا عن مُتابعة الكلام والإصغاء إليه ، ولاتَّجه الاهتمام إلى تدبير مـصيرهما ، وما سيلاقيه كلٌّ منهما ، وفي ذلـك تشتيت للانتباه ، وتضـييع للأثر المطلوب من اتّخاذ التَّعبير بابًا للدخول منه على بيان العقيدة الصَّحيحة ، فالانتقال من بيان العقيدة الصحيحة إلى التَّأويل يكون أبلغ في النفوس وأوقع، خاصة وأنَّ أحـد الرجلين مآله الصلب ، وإنَّ عرض الدعـوة عليه قد يكون سبـبًا في إعانة الذي يهـون عليه معرفـة حقيـقة تأويل رؤياه ، فيُلاقي ربه مؤمنًا .

(جـ) هذا التقـديم يدك عقـيدة القوم دكـّاً دكـّاً ، وإعـلان دعوة الحقّ التي

---

(١) « في ظلال القرآن » (٤/ ١٩٩٠) ، وانظر « السيـاسة الشرعيَّة في إصـلاح الراعي والرعيَّة » لابن تيميَّة (ص ٩٠، ٩١) .

تخرج الناس من الظلمات إلى النور .

(د) لما كان الاصطدام بعقيدة الجماهير يُعرّض الإنسان لأشد ألوان الاضطهاد والتّعذيب التي لا تخطر ببال بشر حتّى أصبحت المجتمعات الدنيويّة أقوى حائل يحول دون اعتناق الدين الحق ، فقد احتاج السّامعون ومن بلغتهم دعوته عليه السلام إلى قدوة يقتدون به في الخروج على ملّة القوم بلا رهبة من بطش ولا خوف من سلطان ، فكان عليه السلام في إعلانه براءته من ملّتهم جهارًا نهارًا ، قدوة لهم جميعًا ليتبعه الذين صفت قلوبهم لما جاءهم من الحق دون خشية من المجتمع ولا المسيطرين عليه .

(هـ) تضمّن إعلانه وجهره عليه السلام بالبراءة من ملّة القوم أبرز صفات الداعين إلى الله تعالى : ألا وهي عدم التردد في إعلان الحق على الملأ حتّى أنّنا لو فرضنا أنه انفرد بهذا الإعلان بين العالمين لما منعه ذلك من تبليغه ولم يتزحزح عن قوله ولو عارضه أهل الأرض جميعًا .

(و) جاء الكلام في الصيغة الخبريّة لا في صيغة الأمر والنهي ، فقوله عليه السلام : ﴿ إِنّي تَرَكْتُ ﴾ بخلاف ما لو قال : « اتركوا ملة قوم »، أو « اتّبعوا ملة إبراهيم » ، فإن صيغة الأمر والنهي قبل التّأسيس لها إنما تبعثهم على الفرار خشية مما ينزل بهم من العقاب من شدّة حرصهم على الهداية لا يلقون إلى القوم ما لا طاقة لهم به [1] .



(١) « يوسف بن يعقوب عليهما السلام » أحمد عز الدين (ص ٢١٤) .

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾ .

[يوسف : ٤١ ، ٤٢] .

ما يُستفاد من الآيتين :

[١] أنَّ من وقع في مكروه وشدَّة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه أو الإخبار بحاله ، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق ، فإن هذا من الأمور العاديّة التَّي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض ، ولهذا قال يوسف للذي ظنَّ أنَّه ناج من الفتيين : ﴿ **اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ** ﴾ [1] .

[٢] أنَّه ينبغي ويتأكد للمعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه ، وألاَّ يجعل تعليمه وسيلة لمعارضة أحد في مال أو جاه أو نفع ، وألاَّ يمتنع من التعليم، وألاَّ ينصح فيه إذا لم يفعل السَّائل ما كلَّفه به المعلم ، فإنَّ يوسف ﷺ قد وصَّى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه ، فلم يذكره ونسي، فلمَّا بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى ، وجاءه سائلاً مستفتيًا عن تلك الرؤيا ، فلم يعنّفه يوسف ، ولا وبّخه لتركه ذكره، بل أجابه عن سؤاله جوابًا تامًا من كل وجه [2] .

[٣] استخدام الأسلوب الحكيم المبشّر غير المنفّر من يوسف ﷺ في التَّعبير ، فهو لم يعيّن من الفتيين من هو صاحب المصير السيئ تلطّفًا وتحرّجًا من المواجهة بالشر والسوء ، فقال : ﴿ **أَمَّا أَحَدُكُمَا** ﴾ ، و ﴿ **وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ** ﴾ لم يُعيّنه باسمه ، وأكّد لهما هذا الأمر واثقًا من العلم الذي وهبه الله له .

---

(١) « تفسير السعدي » (ص٣٦٥) .
(٢) المصدر نفسه (ص ٣٦٥) .

[٤] أنَّ الله شاء ليوسف عليه السلام أن يُعلّمه كيف يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه وحده ، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ، ولا سبب يرتبط بعبد ، وكان هذا من اصطفائه وإكرامه ، إنَّ عباد الله المخلصين ينبغي أن يُخلصوا له سبحانه ، وأن يَدَعُوا له وحده قيادهم ويَدَعُوا له سبحانه تنقيل خطاهم ، وحين يعجزون بضعفهم البشري في أول الأمر عن اختيار هذا السلوك يتفضَّل الله سبحانه وتعالى فيقهرهم عليه حتَّى يعرفوه ، ويتذوقوه ، ويلتزموه بعد ذلك طاعة ورضىً وحبّاً وشوقًا فيتم عليهم فضل بهذا كله [١] .

[٥] خرج الذي ظنَّ يوسف نجاته إلى الحياة الفسيحة الرحبة ، فنسي ما كان فيه من قبل المكان ويوسف ، وحديث يوسف ، وهنَّا يعبّر القرآن : ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ﴾، ولم يقل: « نسى » ، إنَّما ركَّز على الفاعل « الشيطان » ربَّما ليدل على أنَّ الرجل إذا خرج من السجن خرج ليسقي الخمور في مجال اللهو والمجون شواغل كثيرة في حياة رخيصة مثيرها الشيطان ، فضلاً عن أنَّ الإنسان يميل إلى نسيان أوقات الكرب والضيق إلاَّ المؤمن فهو يتذكَّر ليوازن بين وقتين أو بين حياتين ويعرف نعمة الله فيشكرها .

[٦] أنَّ من كان في ضيق وكرب كالسجن وهو غير مؤمن بالله ، فإنَّه بعد خروجه من الضيق يغمره البطر وعدم الإحساس ، ويغمره الذهول والغفلة عما كان عليه من الضيق ، وينسى من كان مثله ممن بقي في السجن ، فلا يتألم بألمه ، وقد يُساور هذا الذهول من شُفي من مرض شديد ، وكان بجواره مريض فينساه ، وقد يُشيّع جنازة لبعض أحبّائه أو بعض

---

(١) « في ظلال القرآن » (٤/١٩٩٢) .

إخوانه ثم يذهل وينسى بعد لحظات من التشـيـيع ظنًّا منه وغفله أنَّه بمنجاة من المرض والموت نســأل الله أن يرزقنا شكر نـعمـه ودوام ذكـرها ، وأن يرزقنا الإتِّعاظ والاعتبار بغيرنا إنَّه سميع مُجيب الدعاء [1] .



(١) « يوسف في القرآن » (ص٣٦) .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾ [يوسف : ٤٣ - ٤٩] .

ما يُستفاد من الآيات :

[١] أنَّ الشعوذة والكهانة سُرعان ما يظهر بطلانها عند أهل الباطل وسرعان ما يظهر عجز أهلها ، ولهذا كان الرد من حاشية الملك من الكهنة أن يواجهوا به الملك في إظهار كل ما يسرُّ الحكَّام وإخفاء ما يُزعجهم ، وصرف الحديث عنه فقالوا إنها : ﴿ **أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ** ﴾ ، أما حجّة الأنبياء والرسل فهي داحضة وصائبة ؛ لأنها مُؤيَّدة من الله سبحانه وتعالى ، وكما قال القائل : « إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل » .

[٢] وفي الآية : ﴿ **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ** ﴾ كأنه هو حقاً الذي سيقوم بالتّأويل ، ولكنها نزعة إظهار الذّات جعلته يتحيّن المناسبة ، ويتذكّر بعد ﴿ **أُمَّةٍ** ﴾ أي بعد مجموعة من الوقت ، ﴿ **فَأَرْسِلُونِ** ﴾ إلى أين ؟ ، وكأنّما أراد الساقي أن يُبهم أولاً الأمر حتّى يأتيهم بالتأويل ، ويُفاجئهم به ، فتزداد أهميته عندهم .

[٣] أنَّ نقل السؤال للعالم ينبغي أن يُنقل إليه بدقة ، حتّى تكون إجابة العالم وافية ومُطابقة للسؤال .

{ ٤ } أنَّ يوسف عليه السلام قد لُقِّب بالصديق ، أي الصادق الكثير الصدق ، لقَّبه به ساقي الملك ، وهذا ما جرَّبه في شأنه من قبل .

{ ٥ } في كلمة ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ولم يقل إلى الملك ، إخفاء لأخبار الملك من جهة ورغبة كامنة في الشهرة على نطاق الناس جميعًا ، سواء في القصر الملكى أو غيره من جهة أخرى (١) .

{ ٦ } في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ أصل في صحَّة رؤيا الكافر ، وأنَّها تخرَّج على حسب ما رأى لاسيَّما إذا تعلَّقت بمؤمن ، فكيف إذا كانت آية لنبي ومعجزة لرسول، وتصديقًا لمصطفى للتبليغ ، وحجَّة للواسطة بين الله جلَّ جلاله، وبين عباده (٢) .

{ ٧ } أنَّ الآية التي تتحدَّث عن العام الذي يُغاث فيه النَّاس لم يوجد لها رمز في رؤيا الملك مما يدل على أن معجزة يوسف عليه السلام من الله تعالى هي تعبير الرؤيا (٣) .

{ ٨ } في الآية ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ﴾ يتَّضح في استعمال الفعل ﴿ يَعْصِرُونَ ﴾ المضارع أنَّه يدل على استمرار عملهم، فالسمسم يعصر زيتًا، وبذرة القطن تُعصر، والقصب يُعصر، وهكذا حركة دائبة وحياة بعد أن كادوا يموتون جوعًا، وفي قول يوسف من التَّخطيط للمستقبل للأمَّة، ومن البشرى لها ما يجعل الأبصار ترنوا إليه ويُستجاب لطلبه (٤) .

{ ٩ } أنَّ ينبغي للعالم المسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلَّق بسؤاله

---

(١) « يوسف في القرآن » (ص ٤٤) .
(٢) « تفسير القرطبي » (٩/ ٢٠٤) .
(٣) « يوسف في القرآن » (ص٤٥) .
(٤) « تفسير السعدي » (ص٣٦٥) .

ويُرشده إلى الطَّريـق التي ينتفع بها في دينـه ودنياه ، فإنَّ هذا من كـمال نصحه وفطنتـه وحسن إرشاده ، فإنَّ يوسف عليه السلام لم يقتصر عـلى تعبير رؤيا الملك ، بل دلَّـهم - مع ذلك - على مـا يصنعـون في تـلك السنين المخصبات من كثرة الزرع وكثرة جبايته [١] .

[١٠] في الآيات أصل في القـول بالمصالـح الشرعـيَّة التي هي حـفظ الأديان والنفوس والعقول ، . والأنساب والأمـوال ، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور ، فهـو مصلحة ، وكل ما يفوت شـيئًا منها فهو مـفسدة ودفـعه مـصلحـة ، ولا خلاف أنَّ مـقـصود الشـرائع إرشـاد النَّاس إلى مصالحـهم الدنيويَّة ؛ ليحصل لهم التَّـمكن في معرفة الله تعـالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخرويّة ، ومراعاة ذلك ، فضل من الله عزَّ وجلَّ ورحمة رحم الله بها عباده من غير وجوب عليه ولا استخفاف [٢] .

[١١] فضيلة العلم علم الأحكام والشرع ، وعلم تعـبير الرؤيا ، وعلم التدبير والاقتـصاد والتَّـربية ، وأنـه أفضل من الصـور الظاهرة ، ولو بلغت في الحسن جمـال يوسف ، فإنَّ يوسف بسبب جمـاله حصلت له تلك المحنة والسجن ، وبسبـب علمه حصل له العز والرفعـة والتمكين في الأرض ، فإنَّ كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته .



(١) « تفسير السعدي » (ص٣٦٥) .
(٢) المصدر نفسه والصفحة .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۝٥٢ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣ ﴾ [يوسف : ٥٠ - ٥٣] .

ما يُستفاد من الآيات :

[١] أنه لا يُلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتَّى تتبيّن لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطّعن أيديهن [١] .

[٢] إن أثر التربية الربَّانيّة شديد الوضوح في الفارق بين الموقفين : الموقف الذي يقول فيه يوسف للفتى : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، والموقف الذي يقول له فيه يوسف : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [٢] .

[٣] أنَّ استخدام يوسف عليه السلام لكلمة ﴿ رَبِّي ﴾ هو بمدلولها الكامل بالقياس إليه ، وبالقياس إلى رسول الملك إليه ؛ فالملك رب الرسول لأنه حاكمه الذي يدين لسلطانه ، والله رب يوسف لأنه حاكمه الذي يدين لسلطانه [٣] .

[٤] في قول يوسف عليه السلام : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ :

(أ) اعتزاز بنفسه لكيلا يكون معفواً عنه بعد ذنب ؛ ولأن السجن في حياته

---

(١) « تفسير السعدي » (ص٣٦٥) .
(٢) « في ظلال القرآن » (٤/ ١٩٩٢) .
(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

يُمثل خطوطًا عميقة لا يستطيع أن يغفل عنها ، فإذا تحرَّى الملك سبب سجنه ويجده هباء ، فلعلَّه من بعد يتحرَّى العدالة مع الرعيَّة ، فلا يزج بأحد ظلمًا في ظلمات السجون .

(ب) أنَّ استخدام كلمة ﴿ رَبِّكَ ﴾ ، ولم يقل : « الملك » ؛ ذم لربوبيّة العبيد للعبيد ، وتنبيه للعبيد إلى أنَّ الربوبيّة الحقيقيَّة التي تبعث العزَّة والقوَّة في نفوسهم هي ربوبيّة الله سبحانه وتعالى .

(جـ) أنَّ الله يعلم تمامًا ما كِدْن له وما مكرن به ، ولكن لابد أن يتولَّى الملك إعلان البراءة تصحيحًا للخطأ ، وهذا الطلب منتهى العفاف والبعد عن الشبهات والرغبة في طهارة الذيل ، وقد قال رسول الله ﷺ في هذا التصرف : « **لو كنت مكان أخي يوسف لأجبت الداعي** » { رواه البخاري (٦/ ٩٧) ، ومسلم (١/ ٩٢) } [١] .

{ ٥ } أنَّ السعي في براءة العرض حسن ، بل واجب [٢] .

{ ٦ } أنَّ الصبر البالغ يتجلَّى في شخصيَّة يوسف عليه السلام ، وهذه الإرادة الحديديّة فيه ، يطلبه الملك من السجن لحاجته إليه ، ومعنى ذلك أنَّ مدَّة المحنة قد انتهت ، وأذنت بالخروج ، وكان من المنتظر أن يتلقَّى يوسف عليه السلام ذلك الأمر بفارغ الصبر ، فيُهرول إلى الخروج ، ولكن يوسف الصديق ، يوسف المعدّ لأن يكون رسولاً ، يوسف الذي امتحن بامرأة العزيز وراودته عن نفسه ، فقال لها : ﴿ **مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)** ﴾ فحفظ لرب البيت إحسانه ولمولاه وخالقه فضله عليه ، يوسف صاحب هذا الخلق المتين لم يكن همَّه أن يخرج من السجن فحسب ، وإنَّما همَّه أن يخرج ظافرًا منتصرًا ، همَّه أن يخرج من

---

(١) « يوسف في القرآن (ص٣٤) .
(٢) « نظم الدرر » (٤/ ٥٤) .

هذه الفتنة كالإبريز الخالص ، وأن يظهر للجماهير أنَّه قدوة حسنة ، ولو تصورَّ الإنسان ما يُقاسيه في السجن ، وما يلقى من شظف العيش ، وأنَّ يوسف قد لبث فيه بضع سنين بسبب نسيان صاحبه أن يذكره عند ربه ، وقد أوصاه بذلك ، ولو تصورَّ الإنسان ذلك كله لعلم مقدار التَّضحية التي ضحَّى بها يوسف الصدِّيق في ردّه رسول الملك ، وقوله له : ﴿ **ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** ﴾ ، ومعنى ذلك أنَّه لا يُريد أن يخرج من السجن إلاَّ حيث ثبتت براءته ، وعلم الناس جميعًا أن صحيفته بيضاء نقيَّة لم تتدنَّس بشيء من الغبار ، وذلك حزم وعزم من يوسف يحفظه له التَّاريخ ، وحسبه أنَّ رسول الله ﷺ يقول فيه : « **لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي** » وقد مرَّ ، وهي شهادة لها قيمتها ، ومنقبة ما أعظمها من منقبة !! ، تعلَّمنا كيف يستهين الإنسان بالشدائد في سبيل طهارة النَّفس وبراءة العِرض ، وترينا أن عذاب الجسم وإن عظم دون عذاب الروح ، فإنَّ عذاب الجسم إلى زوال ، أمَّا عذاب الروح وألم الضمير ووخزه فهو عذاب الأبد ، فلا يوازيه شيء من عذاب الجسم ، ألا ترى إلى المؤمنين في كل زمان يستهينون بعذاب أجسامهم في الجهاد والحروب في سبيل راحة قلوبهم ، وقيامهم بواجبهم نحو دينهم وربّهم ، وقد ترى في الرجل ما لا يُحصى من الضربات والطَّعنات ، ويبلغ به الألم الجسماني ما يبلغ ، وهو راض مُطمئن ؛ لأنه في سبيل راحة قلبه واطمئنان نفسه ، ولا عجب فهو ألم مؤقت في سبيل نعيم دائم ، وهو كما يتلقَّى الرجل العمليَّات الجراحيَّة ، وفيها شق بطن أو بتر عضو من أعضائه برباطة جأش ، وقلب راض في سبيل أن يعيش بعد ذلك عيشة مُريحة ، ويحيا حياة هادئة مطمئنَّة .

وقد حدَّثنا التَّاريخ عن سلفنا الصالح أنَّ الرجل كان ينتهي من ميدان القتال وفيه من أثر الطعن والنزال ما يُؤذي ، ويمر عليه صاحبه وهو يلفظ النفس الأخير ، فيأخذ في تسليته ، فيلقاه مغتبطًا بحال ، ومسرورًا بما آل إليه ؛ لأنه مات في سبيل الله ، وقاتل لإعلاء كلمة الله ، وسيموت شهيدًا يشهد له دمه وعمله ، وسيكون قدوة صالحة لمن يأتي بعده كل ذلك في سبيل راحة النَّفس وسعادتها ، وكل ذلك في سبيل حياة طيّبة تتبع هذه الحياة وكل ذلك في سبيل الذكرى الطيّبة، والسيرة الحسنة [(١)] .

{ ٧ } الإشارة إلى وقوفه عليه السلام موقف الندّ مع الندّ مع الملك ، وهذا غير مألوف لدى المجتمعات الدنيويّة المنقطعة عن هدى الله ، بل نراه يوجّه الملك إلى إعادة التحقيق ويرفض دعوته للمثول بين يديه ، وكان هذا الرفض في صورة الاستفسار عن قضيّة مفتوحة لم يبت فيها ، وهو يُواجه بهذا الطلب الملأ الذين ائتمروا وزجوا به في السجن ، وبعضهم في مجلس الملك .

هذا فضلا عمَّا في هذا الرفض من تحدٍّ لإرادة الملك يصدر منه عليه السلام وهو سجين يُفترض فيه أنَّه لا حول له ولا قوَّة ، ولا ناصر له ولا مُعين .

{ ٨ } بإثارة يوسف عليه السلام القضيَّة أمام الملك نفسه إنَّما يُصعّدها للنظر أمام أعلى المستويات القضائيّة في الدولة وهو مستوى لا تقبل أحكامه النقض ولا يفعل ذلك إلاَّ من كان واثقًا من براءته الكاملة .

{ ٩ } في توجيهه للاستفسار عن قضيّته إلى الملك نفسه تذكير له بمسؤوليّاته عنها، فهو إن كان جاهلاً بجميع ما وقع ثبت عليه التَّفريط في أخص الشؤون التي تمسه ، والذي يُفرط في أخص الأمور ، فإن تفريطه فيما هو أعم يكون أولى ، كيف لا والقضيّة تمس كبار رجال الدولة والحاشية .

---

(١) « دعوة الرسل » (ص١٢٣، ١٢٤) .

{ ١٠ } وإن كـان الملك يعلم بما جـرى فهي أدهى وأمـر ؛ إذ كـيف يكون أهلاً للحكم من يُـؤيّد الفســاد ، ولا يُنصف المظلومين ؟! ، بـل لا يأبه بهم ويترك الحبل على الغارب للظلمة يعيثون في الأرض فسادًا كما يشتهون .

{ ١١ } لم يخصص يوسف عليه السلام امرأة بعينها ، بل عمم في قوله : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ يضرب عليه السلام المثل في أدب التقاضي .

{ ١٢ } أشارت الآية إلى المجلس الذي عقدته امرأة العزيز ؛ ليتم الاستشهاد بمن حـضره مـن النسوة ؛ لعـلَّ إحداهنَّ إن نسـيت أو تغـافلت أن تُذكـرها الأخرى، وهنا تظهر آية أيَّد الله بها نبيّه يوسف عليه السلام .

{ ١٣ } في الآية بيـان بأنَّ الله تعالى مُـحيط بكيدهـنَّ مهمـا دبَّرن وخطَّطن من المؤامرات ، وهو تعالى القادر علـى ردّ كيدهنَّ في نحورهنَّ ، وهو الذي يصـرف السـوء عن الذين آمنوا ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ {فاطر : ٤٣ }[1] .

{ ١٤ } في قول الملك للنسوة : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ نتخيَّل بالاثم في نفس امرأة العزيز حـداً لا يجعلها تستطيع تمييع الكلام ، أو إذابته مع كلام غـيرها من النسوة ، وقد كانت هي بطلة الفضـيحة من قـبل فـنطقت : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ أي ظهـر ، وأن كـلمـة ﴿ حَصْحَصَ ﴾ المضعَّـفة والكبيـرة واشتمالهـا على حرف الحاء الحلقـيَّة والصوت الصادر من الجـوف وانتهائها بحرف الصفـير وهو الصاد الخارج من رأس اللسـان ورؤوس الثنايا ، ما يدل على اعـتراف صادق يـبدأ من الجوف ، وينتهي بالأزيز النابع من حبّها له الكامن في صدرها الذي يغلي كغلي المرجل .

---

(١) « يوسف بن يعقوب » أحمد عز الدين (ص ٢٣، ١٢٩) .

[١٥] أنَّ في قـول امرأة العـزيز : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ ما كـان من حصحصة الحق وظهوره بما ظهر من وقائع القصَّة ، وهي :

(أ) فرار يوسف منها .

(ب) إيثاره عيشة السجن البائسة في خشونتها ومهانتها على عيشة القصور العالية في نعمتها وزينتها .

(جـ) شهادة النسوة اللائي شهدن له [١] .

[١٦] في قولـها : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ شعـور المرأة بخيـانة زوجها وهو يُهدّد كيانها النفسي وبـيتها فهاهي ترجع إلى الحق ، لقد كان زوجها غائبًا عنها ، ووقع منها مـا وقع ، وهما معًا امرأة العزيز ويوسف وليس معـهما إنسي آخـر ، وقد خمـدت شهوة الجنس فـيها بعـد دخول يوسف السـجن ، ولكنهـا لا تزال تحسّ أنَّ شيـئًا يُعـذّبهـا في قلبهـا ، فلتـخرجـه بالاعتـراف ، مؤمنـة بأنَّ الله لا يُبارك ولا يوفق الخـائنين في مكائدهم .

[١٧] أنَّ في قولها هذا أيضًا الشهادة ليـوسف منها بالصدق والعفَّة ، وأن الله وضع في نفـوس الفسـقة إجـلال الأتقيـاء وإكبـارهم ، وإن لم يضع في قلوبهم محبَّتهم ، فامرأة العزيز على حرمانها من طلبها ، وتعفف يوسف عن تمكنها من شهوتها ، وذلك من شـأنه أن يوغر الصدور ويملأها حقدًا وحنقًا ، وهـو ما دعاها إلى أن تُلصق بـه من التهم ما هو بـريء منها ، شهدت له في النهاية بالصدق والعفَّة ، واعترفت له بالكرامة ، وهي تحله من سويداء القلب المحل الأول في الاحترام والإجلال [٢] .

---

(١) « دعوة الرسل » (ص ١٢٣ ، ١٢٤) .
(٢) المصدر نفسه (ص١٢٨) .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

[يوسف : ٥٤ - ٥٧] .

ما يُستفاد من الآيات :

[١] أن الملك لا يأتي بيوسف عليه السلام من السجن ليُطلق سراحه ، ولا ليرى هذا الذي يُفسّر الرؤى ، ولا ليسمعه كلمة الرضا الملكي السامي فيطير بها فرحًا ، كلاَّ ، إنَّما يطلبه ليستخلصه لنفسه ، ويجعله بمكان المستشار والنجيّ والصديق ، فياليت رجالاً يُمرغون كرامتهم على أقدام الحكَّام وهم أبرياء مُطلقوا السراح ، فيضعوا النير في أعناقهم بأيديهم ، ويتهافتوا على نظرة رضا وكلمة ثناء من الحكَّام وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء ، يا ليت رجالاً من هؤلاء يقرؤون هذا القرآن ، ويقرؤون قصَّة يوسف عليه السلام ؛ ليعرفوا أن الكرامة والإباء والاعتزاز تدرّ من الربح - حتَّى المادي - أضعاف ما يدرّه التَّمرغ والتزيف والانحناء [١] .

[٢] في الآية : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ :

(أ) لقد طلبه الملك خالصًا له مُتفرغًا فلمَّا كلَّمه وازداد اقتناعًا به ، قال الملك : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ ، لقد كان أمينًا على أعراض النساء أمينًا في مشورته ، حين جاءه الساقي ، لقد نطق الملك بمثل هذه العبارة حيث كانت نفسه مُفعمة بالإعجاب بيوسف ، لو تصوّرنا أنَّ يوسف لم يطلب سؤال النسوة قبل أن يَقْدُم على الملك لكلمه الملك

(١) « في ظلال القرآن » _(٤/ ٢٠٠٥) .

وفي نفسه أنَّ يوسف كان سجينًا مثل غيره ، وما قال بعد : ﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ أي ليس بيني وبينه حجاب ما يعنّ لي من أمور عامَّة أو خاصة أفقها ، استفتيه فيها فمكانته إذن من مكانة الملك ثابتة راسخة ﴿ مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ على أسراره وأسرار الدولة .

(ب) أنَّ تكرار الظرفين « اليوم ، ولدينا » وكلاهما ظرفا زمان ما يدل على أنَّ يوسف قد بلغ في نفس الملك مبلغًا عظيمًا من المكانة والثقة والاحترام والبراءة والطهر والعفَّة والنزاهة ما لم يبلغه أحد من رجال الحكومة والدولة ، والفرق بين الطرفين : « اليوم ، ولدينا » أنَّ الأول يوحي ببداية عهد جديد لمكانة يوسف عند الملك ، والثانية توحي باستمرار هذه المكانة ودوامها ، فلا تتغيَّر بتغيّر الأيام .

[٣] في الآية : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ :

(أ) لقد أقرَّ ليوسف (أي الملك) بخصيصة نفسيّة هي الأمانة ، ولم يشأ يوسف وهو الطاقة القويّة أن يجلس جوار الملك للمشورة تأتي حينًا بعد حين ، أراد أن يعمل متخيّرًا العمل الملائم لكفاءته متوليًا للشؤون الماليّة جميعًا ﴿ خَزَائِنِ ﴾ سوّغًا ذلك بأنه ﴿ حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، فهو لم يطلب المنصب والجاه من حيث منصب وجاه ، وإنَّما ليقدّم خبرة وجهدًا ، ويبذل عرقًا ، معنى هذا أنَّ المرء ينبغي له ألا يتخلَّف عن منصب هو جدير به وكفء له ، والتَّعفف من ذلك جريمة .

(ب) أنَّ على أصحاب السلطة ألاَّ يولوا عاملاً لا يقوى على النهوض بأعبائه كاملة مُتقنة ، فقد قال أبو ذر رضي الله عنه للنبي ﷺ : ألا تستعملني ؟ ، فضرب النبي ﷺ بيده على منكبه ، وكأنه يؤكد ما يقوله صراحة : « **يا أبا ذر إنَّك ضعيف وإنَّها أمانة ، وإنَّها يوم القيامة**

خزي وندامة إلاَّ من أخذها بحقّها وأدَّى الذي عليه فيها »[1] .

(جـ) لم يتحـدَّث القرآن عن الرد بالموافقـة على طلب يوسف من الملك ، لم ينقل لنا القـرآن الموافقة مـن الملك ، ولعلَّ ذلك كان الرد فـعليّاً لا قوليّـا ؛ فإنَّ التَّفـويض القولي عـبارة عن روتين - كمـا يقولون - ، فالجـانب الفعلي أهم بكثـير من التـفويض القولـي ، والموقف مهم لا يحتاج إلى طول زمن في القضيّة .

[٤] قوله : ﴿ **فَلَمَّا كَلَّمَهُ** ﴾ يُشير إلى أنَّ الملوك من شـأنها إذا سمعت برجل نابه وشاب مُثقَّف ، خـبير بالشؤون العامة ، يستطيع أن يسـتفيد منه الملك في مهـام دولته وأن يسـتعين به على المشـاكل التي تعرض لـه ، من شأن الملوك الذين يحرصون على مستقبل دولتهم ، ويعملون على أن يبقى الملك فيهم ، أن يتخيّروا لمملكتـهم أصلح الناس وأعملهم بشؤون الحياة وأدراهم بتيسير الأمور ، ومن العـدو من يحقد على الرجل النابه ، ويتألَّم من ذائع الصيت ، ويتأفف من حسن المسلك ، وكـأن الرجل الكفء في أمته عدو من ألدّ أعدائه ، وخصم من خصومه ، وما درى أنَّه قوة من قواه ، وعدّة يَنْفَعُه وقتًا مـا ، وأنّ العلم في كل زمان لا غنى للناس عنه ، والكفاءة في الرجل ممن تنتـفع بهـا الدولة ، وتسود بهـا البـلاد ، وأنَّ الفقـر المدقع ، والشـقاء الذي لا يُدانيـه شقـاء ، في خلوّ الدولة من رجـال ذوي كفـاءة ومقـدرة في شتَّى الشؤون ، ومخـتلف العلوم ، وأنه لا تستوي أمَّـة غنيَّة برجالها وعلمها ، وأمَّة فقيـرة في العلم والرجال ، وما سبقنا الغربيون إلا بغناهم برجـالاتهم ،وعلومهم النافـعة المفـيدة ، ومـا تأخَّر المسلـمون إلا بفقرهم من هذه النواحي .

---

(١) « صحيح مسلم » (٦/٦) وما بعدها ، وانظر « يوسف في القرآن » (ص ٥٠) .

ولو أنَّ حكَّام المسلمين تأسّوا بذلك الملك الذي طلب يوسف؛ ليستخلصه لنفسه ، ويدخره للملمات ، لو أنَّهم تأسوا بذلك الملك ، فاحتضنوا النابه من أممهم والكفء من رجالاتهم لسعدوا وأسعدوا شعوبهم بذلك العمل ، ولكنهم مع الأسف الشديد يستخلصون من يوافقهم على شهواتهم ، ويُطاوعونهم على أهوائهم ، ويُسرعون إلى إشباع نهمهم ، وسدّ مطامعهم يستخلصون من القوم أدناهم نفسًا ، وألأمهم طبعًا وأكثرهم نفاقًا ، وأبعدهم عن الأمانة وعزَّة النفس ، وهم الذين إذا استشارهم الحكام ضللوهم ، وإذا استنصحوهم خانوهم ، ويُصوّرون النابه من الأمة بصورة بشعة ، ويعملون على أن يجعلوا بينه وبين الملك سدًا ، كما يصوّرون نهضة الأمة التي فيها حياتها وحياة ملكها بصورة تتقزز منها النفوس ، وتأنف لها الطباع ، ويجتهدون في أن يضعوا الأشواك والعقبات في سبيل هذه النهضة لدى الملك أو الحاكم ويُفهمونه أنَّها حركة يُراد بها الشر ولا يُراد بها الخير ، فيحوّلون وجهه عنها ، ويصرفونه عن العناية بها ، وكأن هذه البطانة فهمت أنَّ النصح لا يستسيغه الحاكم ولا يتقبَّله ؛ فآثروا عليه الغش ، وعلمت أنها إن أظهرته على أمور الدولة على حقيقتها سوف يضلله شخص آخر ، فيعود على البطانة باللائمة ، ويعتقد فيها الغش والتدليس ، لذلك رأت البطانة أن تُؤثِّر عليه من الناحية التي يميل إليها ، وتصل إلى محبَّته لها عن الطريق الذي ترى أنه أدنى لوصولها ، ولو أن تلك البطانة انتقلت إلى سلطان مُصْلح لسارعت إلى الإصلاح والدَّعوة إليه، وحبَّبته في ذلك العلم ؛ لأنها تعرف من نفسه ميلاً إلى الإصلاح ، وجملة القول أنَّ بطانة الحكَّام اليوم إلا القليل منها تأخذ من نفسيّة الحاكم وتُشير عليه ، ومن ميوله فتنصح له ، فما تأمر به البطانة هو ما يهواه الحاكم ويُحبه ، وما تنهى عنه البطانة هو ما يُبغضه الحاكم ويكرهه ، فهي

تُردد صداه في أمرها ونهيها ، وتنطق باسمه في ترغيبها وترهيبها ، فليس لها كلمة مع الحاكم ، ولا تستطيع أن تقول له أنَّ ما نشير به قد خفي عليك وجه المصلحة فيه ، وأن الخير في تركه ، وما تنهى عنه الخير للناس في العمل به ؛ لأنها قبلت ذلك العمل على هذا الأساس ، وهي أنَّها لا رأي لها مستقلاً ولا كلمة لها إذا كانت تغضب صاحبها في الأمر والنهي.

ومن دخل عملاً على أساس أنَّه لا رأي له فيه ولا إرادة ، بل إرادته تبعًا لإرادة غيره ، وتفكيره كذلك ، لا غنى له عن التزام ما دخل على أساسه، وما الذي يُنتظر من رجل يُريد أن يعيش من ذلك الطريق ، وأن يثرى على أساس مثل هذه الوظائف ، لا يُنتظر من مثل ذلك الصنف إلا أنه نسى نفسه واستقلاله في سبيل حصوله على الحطام ، وأنَّه يرى الحقَّ مهيض الجناح ضعيف الجانب ، فلا يستطيع أن ينصره بكلمة ، وأنه يرى الباطل قد طغى على الحق ، فلا يجد من نفسه شجاعة على كلمة حق ؛ لأنه يتوهَّم أنَّ في كلمته إغضاب للملك ، وهو حريصٌ على رضاه .

أمَّا البطانة التي تتصل بالحكام من غير طريق الوظائف ، فقد يرجى فيها ما لا يرجى من بطانة الموظفين ، فإنَّهم إذا نصحوا لا يخشون ضياع رزق أو فوات مال ، وإذا غضب الحاكم لنصيحتهم اليوم ، فسيرضى عنها وقتًا ما، وكذلك البطانة التي يختارها الحاكم بعد الاختبار ، ويصطفيها لنفسه بعد التَّجربة الصحيحة كيوسف ، فإنَّها تستطيع أن تصل إلا ما لا تستطيعه البطانة الأولى ، وأنَّ الحاكم الذي يُوفَّق إلى بطانة من ذلك الصنف لهو الحاكم الذي أراده الله بملكه خيرًا .

يُحدّثنا أبو داود من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : **«إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق ، إن نسى ذكَّره ، وإن ذكر**

أعانه ، وإن أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسي لم يُذكِّره ، وإن ذكر لم يُعِنْهُ » .

وروى البخاري من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «**ما بعث الله من نبي ، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشرِّ وتحضُّه عليه ، والمعصوم من عصمه الله »** [١] .

{ ٥ } قال بعض أهل العلم : في هذه الآية ما يُبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر والسلطان الكافر بشرط أن يعلم أنه يفوّض إليه في فعل لا يُعارضه فيه ، فيُصلح منه ما شاء ، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره ، فلا يجوز ذلك [٢] .

{ ٦ } أنَّ الآية دلَّت على جواز أن يطلب الإنسان عملاً يكون له أهلاً ؛ لأن يوسف عليه السلام إنَّما طلب الولاية؛ لأنه علم أنَّه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أنَّ ذلك فرض مُتعيّن عليه فإنَّه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم لو علم إنسان من نفسه أنَّه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ، ولم يكن هناك من يقوم مقامه لتعيَّن ذلك عليه ، ووجب أن يتولاها ، ويسأل ذلك ويُخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك كما قال يوسف عليه السلام [٣] .

{ ٧ } أنَّ جباية الأرزاق إذا أُريد بها التوسعة على النَّاس من غير ضرر يلحقهم لا بأس بها ؛ لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين

---

(١) « دعوة الرسل(ص٣٠) ، وانظر « عون المعبود » برقم(٢٩١٦) ، قال : سكت عنه المنذري ، و« صحيح البخاري »(٦/ ٢٤٣٨) رقم الحديث(٦٢٣٧) .
(٢) « تفسير القرطبي»(٩/ ٢١٥) .
(٣) المصدر نفسه والصفحة .

المخصبات للاستعداد للسنين المجدبة وأن هذا غير مناقض للتوكّل على الله بل يتوكَّل العبد على الله ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه .

[٨] أنَّ يوسف عليه السلام هنا أمام الملك ، فـإذا هو يطمئنه على أنه عنده ذو مكانة وفي أمان ، فليس هو الفتى الموسوم بالـعبوديّة إنّما هو مكين ، وليس هو المهـدد بالسجن ، إنَّمـا هو أمين ، إن يوسف هنا لم يـسجـد شكرًا كمـا يسـجد رجـال الحاشـية المتـملّقون لـلطواغيت ، ولم يقل : « عـشت يا مولاي، وأنا عبدك الخاضع ، أو خادمك الأمين » كلا إنَّما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة الاقـتصاديّة القادمة النازلة على الأمَّة خـيرًا مما ينهض به أحـد في البلاد وبما يعتـقد أنه سيـصون به أرواحًا من الموت جوعًا وبلادًا من الخراب ومجتمعًا من الفتنة فتنة الجوع ، ويا ليت بعض الحكَّام التي تُعاني شعوبهم من أزمـة الجوع يتركون الفرصة لمن يتوسَّمـون فيه العدل والخـير والكفاءة ؛ ليُنقذوا شـعوبهم من الأزمات الاقتصاديَّة الماحقة [1] .

[٩] وقوله : ﴿ **إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ نرى أنَّ أهم شيء في الوالي والوزير هي الأمانة ، وأن الفـاقد للأمانة خطر داهم على الدولة ومـرافق البلاد ، وإذا كان عالمًا مع فقده لذلك الوصف كان خطره أشد ؛ فيستطيع أن يلعب بمال الدولة ، ويستخدم علمه ومواهبه في تضليل النَّاس وتلبيس الأمور عليهم، أما الأمي إذا كان جاهلاً وغلط ، كان غلطه عن حُسن نية وقصد حسن ، وقد ينتبـه إلى غلطه فلا يعود إليه بعـد، وكم جرَّبت الأمم على الوالي أو وزير الماليـة الخائن من خـيانات ووقـفت له على فضـائح ومخـازٍ ، وكل ذلك؛ لأن أمـر الدولة لم يُسند إلى وزير صـالح في خلقـه وأمانتـه ، بل

(١) « في ظلال القرآن » (٤/ ٢٠٠٥) .

أُسند إلى لص من اللصوص غير أنه لص لم يتعوَّد أن يدخل السجون؛ لأن عنده من الحصانات والوظائف ما يُفرق بينه وبين لصوص السجون ومجرميها (١) .

[١٠] في قوله : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ﴾ ، وتأمَّل الفعل ﴿ نُصِيبُ ﴾ أيضًا بصيغة المضارع ؛ لأنها هكذا سعة الكون ، والمعنى أنَّ رحمة الله لا تُخطئ من يريده الله كما يُصيب السهم فلا يُخطئ الرمية ، وفي كلمة ﴿ مَن نَّشَاءُ ﴾ تشمل الضعيف والمظلوم والمؤمن والمحسن ، وقد يرحم الله غير هؤلاء ، فرحمته تعالى وسعت كل شيء امتحانًا وابتلاءً ﴿ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ومهما طال الزمن ، فإنَّ المتقنين عملهم يحتسبون وجه الله ولا يضيع جزاؤهم عند الله (٢) .

[١١] أنَّ الله واسع الجود والكرم يجود على عباده بخير الدنيا والآخرة ، وأنَّ خير الآخرة له سببان :

(أ) **الإيمان** .

(ب) **التقوى** .

وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها ، وأن العبد ينبغي له أن يدعو لنفسه ويُشوِّقها لثواب الله ، ولا يدعها تحزن إذا رأت زينة أهل الدنيا ولذَّاتها وهي غير قادرة عليها ، بل يُسلِّيها بثواب الله الأخروي وفضله العظيم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

[١٢] أنَّ من سنن الله جلَّ وعلا وهو العليم الحكيم : اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدَّة والضيق ، والأمن بعد الخوف ، والحريَّة بعد القيد ، والعز

---

(١) « دعوة الرسل » (ص١٣١) .
(٢) « يوسف في القرآن » (ص٥١) .
(٣) « تفسير السعدي » (ص٣٦٥) .

والمقام العلى ، بعد الهوان على النَّاس ، فبعد مرور هذه المحن المختلفة على يوسف وبعد أن طحنته طحنًا هاهو يتسلَّم مقاليد حكم مصر ، وهي أكبر محنة من المحن التي سبقتها ، **قال الشاعر :**

أمـا في رسـول الله يوسف أسـوة ... لمثلك محبـوسًا على الظلم والإفكِ
أقام جـميل الصبـر في الحبس برهة ... فـآل به الصبـر الجـميل إلى المُلكِ

وكتب بعضهم إلى صديق له :

وراء مـضيق الخوف مُتَّسع الأمن ... وأول مـفـروج بـه آخـر الحُـزْنِ
فـلا تيأسـن فـالله ملَّـك يوسـفًـا ... خـزائنه بعـد الخلاص من السـجنِ

وقال بعضهم :

إذا الحـادثـات بلـغـن النُّهـى ... وكـاد تـذوب لهـن المـهـجْ
وقـلَّ البـلاءُ وقـلَّ العـزاء ... فـعـند التَّنـاهي يكون الـفـرج [(١)]

[١٣] في قول يوسف عليه السلام : ﴿ **ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** ﴾ ، في هذا التريث والسؤال دروس وعبر جليلة في أخلاق يوسف عليه السلام وعقله وأدبه :

(أ) دلالته على صبره وأناته وجدير بمن لقي من الشدائد أن يكون صبورًا حليمًا ، فكيف إذا كان وارثًا لإبراهيم عليه السلام الذي وصفه الله بالأوَّاه الحليم .

(ب) عزَّة النفس وحفظ كرامتها إذ لم يرض أن يكون متَّهمًا بالباطل حتَّى تظهر براءته ونزاهته .

(جـ) وجوب الدفاع عن النفس وإبطال التّهم التي تُخلُّ بالشرف كوجوب

---

(١) « تفسير القرطبي » (٩/ ٢٢٠).

اجتناب مواقفها .

(د) مـراعاته الـنزاهة بعــدم التَّصـريح بشـيء من الطَّـعن على النِّسْـوة ، وترك أمر التَّحقيق إلى الملـك يسألهن ما بالهن قطعن أيديهن وينظر ما يُجِبْنَ به .

(هـ) أنَّه لم يذكر سيدته معهن ، وهي أصل الفتنة ؛ وفاءً لزوجها ورحمة بها ؛ لأن أمر شغفها به كان وجدانًا قاهرًا لها ، وإنَّما اتَّهمها أولاً عند وقوفها موقف التّهمة لدى سيدها وطعنها فيه دفاعًا عن نفسه ، فهو لم يكن له بدّ منه [1] .



(١) محمد رشيد رضا (ص٧٣، ٧٤) .

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يوسف : ٥٨ - ٦٦] .

ما يُستفاد من الآيات :

[١] حسن تدبير يوسف لما تولَّى خزائن الأرض حتَّى كثرت عندهم الغلاَّت جدًا ، وحتَّى كان أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها ؛ لعلمهم بوفورها فيها ، وحتَّى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل ، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله [(١)] .

[٢] أنَّنا نتخيَّل أن إخوة يوسف عليه السلام لمَّا دخلوا عليه وهم لا يعلمون أنه يعرفهم ، فهم لم يتغيَّروا كثيرًا ، أمَّا يوسف عليه السلام فإن خيالهم لا يتصوَّر قط أنَّه هو ذاك ، وأين الغلام الصغير الذي ألقوه في الجب منذ عشرين عامًا أو تزيد من عزيز مصر ، شبه المتوَّج في سنّه وزيّه وحرسه ومهابته وخدمه وحشمه ، وهيله وهيلمانه [(٢)] .

(١) « تفسير السعدي » (ص٣٦٥) .
(٢) « في ظلال القرآن » (٤/٢٠٠٦) .

{ ٣ } أنَّ الرجل كان مقيمًا ويعرف صبيانًا صغارًا ، ثمَّ يغيب عنهم سنوات ، يعود إلى المكان أو القرية أو الحي الذي كان فيه ، وقد أصبح هؤلاء الصبيان رجالاً ، فإنَّه لا يكاد يعرفهم للفروق الكثيرة بين الزمانين زمن صغرهم وزمن رجولتهم ، ولتغيّر أعضائهم كالوجوه التي كانت صغيرة ، ثم كبرت ، وكانت لا يوجد عليها شعرة ، ثم أصبحت عليها الشعر والضَّخامة بخلاف الرجل نفسه حين غاب عنهم ثم عاد ، فإنَّ التَّغيُّر فيه وفي أعضائه قليل عن الصبيان ، وهذا ما تُشير إليه الآية ﴿ **فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** ﴾ تأمَّل .

{ ٤ } في الآية : ﴿ **وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** ﴾ :

(أ) تُلفتنا كلمة ﴿ **فَدَخَلُوا عَلَيْهِ** ﴾ إلى أنَّ يوسف عليه السلام اتَّبع في عمله سياسة « الباب المفتوح » ، الكل يُقابله لا يمنع أحدًا من مقابلته للعمل، فقد دخلوا لا لزيارة شخصيَّة بدليل أنَّهم لم يكونوا يعرفون أنه يوسف عليه السلام ، وإنَّما للتجارة « فعرفهم » العدد هو هو إلا واحدًا، وربَّما كان السبب طريقتهم في الكلام والإشارة وتقديم الأكبر فالكبير مثلاً ، فضلاً عن ذاكرته الواعية التي لا تزال تحتفظ بملامحهم وألوان بشرتهم ، ولعلَّ السنين لم تغيّر منهم كثيرًا ﴿ **وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** ﴾ .

(ب) ﴿ **وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** ﴾ لماذا لم يقل : « ولم يعرفوه » في مقابل في مقابل : ﴿ **فَعَرَفَهُمْ** ﴾ ، فتكون المادة « ع - ر - ف » ؟ ، إنَّ إخوة يوسف لم يعرفوه ملامح وشكلاً فحسب ، وإنَّما أنكروا عليه وجوده أصلاً ، كما تنكر على المرء سلوكًا أو فعلاً أتاه ، أو كما يقول الله تعالى : ﴿ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)** ﴾ { النحل : ٨٣ } .

(جـ) تقديم الجـار والمجرور (له) لإظهـار أي شعـور يحملونه نـحوه ، التَّجاهل وعدم الرغبة في وجوده ، فقد سبق مثلاً منذ سنين عددًا ، أن كادوا له وألقـوه في الجب فمن المظنون أن يكون قد مـات أو انتهى به السبيل إلى بلد بعيد مع إحدى القوافل أو يكون من غمار الناس لا أن يكون وزيرًا للخزانة - بتعـبيرنا المعاصر - فضلاً عن أن مـعرفتهم إيَّاه ترجع إلى عهد طفولته ، طري العود ، أما الآن فقد بلغ أشده [١] .

[٥] لقد أصبح يوسف عندهم في حكم الأموات ، وهذا هو بعض سرّ التعبير القرآني: ﴿ **فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** ﴾ الذي جاء مُـخالفًا لمـا يقضي به الظَّاهر، وهو أن يُقال فعرفهم وهم لم يعرفوه ، أمَّا قوله تعالى : ﴿ **وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** ﴾ فإنَّه يـدل على أنه كان من طبـيعـة الأمور أن يعـرف إخوة يوسف أخاهم ، ولكن بفعلتهم المنكرة معـه قد أصبح يوسف غريبًا منكرًا عندهم ، كأن لم يكن في يوم من الأيَّام واحدًا من أبناء يعقوب [٢] .

[٦] إنَّما اسـتجـاز يوسف إدخال الحزن عـلى أبيه بطلب أخـيه ؛ لأن في هذا أربعة أوجه :

(أ) يجوز أن يكون الله عـزَّ وجل أمره بذلك ؛ ابتـلاءًا ليعـقوب عليه السلام ؛ ليُعظم له الثواب فاتَّبع أمره فيه .

(ب) يجوز أن يكون أراد بذلك أن يُنبّـه يعقوب على حال يوسف عليـهما السلام .

(جـ) لتتضاعف المسرَّة ليعقوب برجوع ولده عليه .

(د) ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته لميلٍ كان منه إليه.

---

(١) « يوسف في القرآن »(ص٥٢) .
(٢) « القصص القرآني » لعبد الكريم الخطيب (ص٤٥٨) .

والأول أظهر والله أعلم [١] .

[٧] الإدارة الناجحة وعدم تعطيل الأعمال حين جهَّزهم بجهازهم ، وأعدَّ لهم عدَّة السفر من الزَّاد ، وهذا غاية في الوفاء بالحقوق وحسن المعاملة [٢] .

[٨] مشروعيَّة الضيافة وأنها من سُنن المرسلين ، وإكرام الضَّيف لقول يوسف لإخوته : ﴿ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ [٣] .

[٩] في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ ، ينبغي للرجل أن يكون مُحتاطًا في وعوده ، ولاسيّما إذا كان الموعود به ليس في قبضة الواعد ، بل هو شركة بينه وبين غيره ، وكثير من الناس يتورَّط في وعوده، ولا يستطيع الوفاء بها ، ويُعرِّض نفسه للكذب ، والسبب الغالب على النَّاس في تورطهم أنَّهم وهم يُعطون وعدًا لك بأن يوفيك دينك في يوم كذا أن يكون مطمئنًا لحصوله على الدَّيْن قبل ذلك اليوم ، وكذلك من يَعدك بأنَّه يُتمُّ لك العمل في وقت ما ، لابد أن يكون واثقًا من نفسه في إتمام ذلك العمل في الموعد الذي حدَّده ، أما الذي يعد وهو غير واثق من الوفاء ، أو لم يُفكّر فيه فهو مُخطئ آثم ، وقد عرَّض نفسه لأن يتهمه الناس بالكذب والغدر ، وحسب الصانع أو التاجر أن يكون كاذبًا في وعده لتضيع ثقة الناس به ، وحسبْ المؤمن الحازم أن يكون صادقًا وفيًّا لتثق الناس به [٤] .

[١٠] أنَّ سوء الظنّ مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا مُحرَّم ، فإنَّ يعقوب قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتَّى عالجوه أشدّ

---

(١) « تفسير القرطبي » (٩/ ٢٢٢) .
(٢) « يوسف في القرآن » (ص٥٣) .
(٣) « تفسير السعدي » (٣٦٥) .
(٤) « دعوة الرسل » (ص١٣٧) .

المعالجة ، ثم قال لهم في الأخ الأكبر : ﴿ **هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ** ﴾ ، ثم لما احتبسه يوسف عنده ، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم : ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾ ، فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مُفرِّطين - فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم ولا حرج [١] .

[١١] ثقة العبد الصادق بالله تعالى ، رغم تتابع الكروب والخطوب ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى أرحم بعبده المؤمن الصابر من رحمة العبد لنفسه ، وهنا يلتجئ يعقوب عليه السلام إلى الله تعالى ، ويستمر في رجائه الدائم في الله ، فيقول : ﴿ **فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾



(١) « تفسير السعدي » (٣٦٥) .

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يوسف : ٦٧ ، ٦٨] .

ما يستفاد من الآيتين :

[١] أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع بل جائز ، وإن كان لا يقع شيء إلاَّ بقضاء وقدر ، فإنَّ الأسباب أيضًا من القضاء والقدر لأمر يعقوب عليه السلام ، حيث قال لبنيه : ﴿ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ [١] .

[٢] أنَّ كل شيء يجري بقضاء الله ومشيئته ، وعلى العبد أن يأخذ بالأسباب ويتوكَّل على الله سبحانه وتعالى ، فلا يتوكَّل على أحد غير الله .

[٣] أن نتأمل نصيحة يعقوب عليه السلام لأولاده وقوله لهم : ﴿ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ ، وقد صنعوا بأخيهم يوسف ما صنعوا ، لنعلم مقدار وشفقة الآباء على الأبناء ، وأنَّ إساءة الأبناء للآباء لا تنزع الشَّفقة منهم ، ولاسيّما إذا كان مصدرها حسد البعض للبعض .

[٤] أنَّه ينبغي للآباء أن تكون من سعة الصدر وتغليب الرَّحمة على الغلظة كما كان يعقوب مع بنيه، ينصح لهم بألاَّ يدخلوا المدينة من باب واحد [٢] .

[٥] في قوله : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ استدراك من نبي الله يعقوب ؛ ليُرينا أنَّ تدبير العبد لا يرفع قضاء الله تعالى . فقد يكون

---

(١) « تفسير السعدي » (ص٣٦٥) .
(٢) « دعوة الرسل » (ص١٤١) .

ناقصًا لا يفي بالغرض ؛ لأنه تدبير مخلوق محدود في عمله واستعداده ، أمَّا تدبير الله فأساسه العلم المحيط والحكمة العالية ، فإذا دبَّر الله شيئًا لك لا يكن إلا ما دبَّر ، وليس المراد أن ندع الحذر ، ونترك الأسباب ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] بل المراد الرجوع إلى الله مع الأخذ بالأسباب ، فنبي الله يعقوب عليه السلام يُرينا الأخذ بالأسباب ، وأنَّ احتياطه لا يُبطل قضاء الله وقدره [١] .



(١) المصدر نفسه (ص١٣٩).

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ .

[يوسف : ٦٩ - ٧٦] .

ما يُستفاد من الآيات :

[١] جواز استعمال المكائد التي يتوصَّل بها إلى الحقوق ، وأنَّ العلم بالطرق الخفيَّة الموصلة إلى مقاصدها مما يُحمد عليه العبد ، وإنَّما الممنوع التحايل على إسقاط واجب أو فعل محرم [(١)] .

[٢] أنَّ ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لا يجب أن يطَّلع عليه أن يستعمل المعاريض القوليّة والفعليّة المانعة من الكذب كما فعل يوسف ، حيث ألقى الصواع في رحل أخيه ، ثم استخرجها منه موهمًا أنه سارق ، وليس فيه إلاَّ القرينة الموهمة لإخوته ، وقال بعد ذلك : ﴿ **مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ** ﴾ ، ولم يقل : « من سرق متاعنا » ، وكذلك : « إنَّا وجدنا متاعنا عنده » ، بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره ، وليس في ذلك محذور ، وإنَّما فيه إيهام أنَّه سارق ؛ ليحصل بذلك المقصود ، وأن

---

(١) « تفسير السعدي » (ص٣٦٥) .

(٢) المصدر نفسه والصفحة .

يبقى عنده أخوه ، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعدما تبيَّن الحال (٢) .

[٣] أنَّ في قوله تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ ، تحديد دقيق لمدلول كلمة ﴿ **دِينِ** ﴾ فهو يعني نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق وأخذه في جزاء سرقته ، فلا يقتصر مدلول « الدين » على الاعتقاد والشعائر فقط ، بل يتناول دينونة العبد بالطَّاعة والخضوع لله وحده ، وإقراره بالحاكمية لله لا لغيره من الحكَّام وغير ذلك (١) .



(١) « في ظلال القرآن » (٤/٢٠٠٦) .

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ .

{ يوسف : ٧٧ - ٨٧ } .

ما يُستفاد من الآيات :

{ ١ } في الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ استرحام منهم ليوسف باسم والد الفتى الشيخ الكبير ، وأن يأخذ واحدًا منهم بدلاً منه ، ويستعينون في رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه ، ولكن يوسف كان يُريد أن يُلقي عليهم درسًا ، وكان يُريد أن يُشوّقهم إلى المفاجأة التى يعدّها لهم ولوالده ، وللجميع ؛ ليكون وقعها أعمق وأشد أثرًا في النفوس [١] .

---

(١) « في ظلال القرآن » (٤/ ٢٠٢٢) .

[٢] في قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ [لم يقل : « معاذ الله أن نأخذ بريئًا بجريرة سارق » ؛ لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق ، فعبَّر أدق التعبير ، وهذه هي الكلمة الأخيرة في الموقف ، وعرفوا أنه لا جدوى بعدها من الرجاء ، فانسحبوا يُفكّرون في موقفهم المُحرج أمام أبيهم حين يرجعون [(١)] .

[٣] في قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ من الفقه أنَّ كل من كان على حق وعلم أنه قد يُظنُّ به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهّم أن يرفع التهمة ، وكل ريبة عن نفسه ويُصرّح بالحق الذي عليه حتّى لا يبقى لأحد متكلم ، وقد فعل نبينا محمد ﷺ بقوله للرجلين اللذين مرّا وهو قد خرج مع صفيَّة بنت حيي رضي الله عنها يقلبها من المسجد : « **على رسلكما إنَّما هي صفيَّة بنت حيي** » فقالا : سبحان الله وكبر عليهما ، فقال النبي ﷺ : « **إنَّ الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم ، وإنّي خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا** » .

[رواه الشيخان ، القرطبي (٩/ ٢٤٦)] .

[٤] الواجب على كل مسلم إذا أُصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقَّى ذلك بالصبر الجميل والرضا والتَّسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدي بنبي الله يعقوب وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين [(٢)] .

[٥] ها هم قد أفضوا إلى أبيهم بالنبأ الفظيع فلا تسمع إلا ردّه قصيرًا سريعًا شجيًا وجيعًا ، ولكن وراءه أمل لم ينقطع في الله أن يرد عليه ولديه ، وأولاده الثلاثة ، وإنه لأمل عجيب في ذلك القلب الوجيع ، ﴿ قَالَ بَلْ

(١) المصدر السابق والصفحة .
(٢) « في ظلال القرآن » (٤/ ٢٠٢٥).

سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يعلم حاله يوم فُقِد يوسف ، وهذا اليوم فُقِدَ شقيقه ، ويعلم سبحانه ما وراء هذه الأحداث والامتحانات ، ويأتي بكل أمر في وقته المناسب عندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج ، هذا الشعاع من الرجاء من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ ؟ ، إنه الرجاء في الله ، والاتِّصال الوثيق به ، والشعور بوجوده ورحمته ، ذلك الشعور الذي يتجلَّى في قلوب الصَّفوة المختارة ، فيُصبح عندها أصدق وأعمق في الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار .

{ ٦ } إنَّما تأسَّف يعقوب على يوسف دون أخويه مع أنَّ الرزء الجديد أشدّ على النفس وأظهر أثرًا لما يلي :

(**أ**) ليُرينا أن رزء يوسف لم يزل جديدًا مع تقادم عهده فكان غضًا عنده [(١)] .

(**ب**) أنه أكبر رزء رآه .

(**جـ**) أنَّ الرزء في يوسف كان أصل الرزايا الأخرى ، فكان أيضًا على الكل .

(**د**) أنَّه كان عالمًا بحياة أخويه دون حياة يوسف [(٢)] .

{ ٧ } في قوله تعالى : ﴿ **وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ** ﴾ دلالة على أن الالتفات في الصلاة – وإن لم يُبطل – يدل على العقوبة عليها والنقص فيها ، وقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة ، فقال : « **هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد** » [(٣)] .

---

(١) طريًا كما قيل : « ولم تنسى أوفي المصائب بعده » .

(٢) « الكشّاف » للزمخشري (٢/٣٣٨) .

(٣) « تفسير القرطبي » (٩/٢٤٧) .

[٨] في قوله تعالى : ﴿ **وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾ لا ضير في أن يتألَّم نبي الله يعقوب لهذه الشدائد ، ويحزن الحزن العميق لتلك الأحداث ؛ لأن هذا طبع الإنسان واستعداده ، ويمتاز الصالحون بأنَّهم لا يُغضبون ربَّهم في حزنهم ، ولا يخرجون به إلى ما لا يحسن ، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم ، وقال : « **إنَّ القلب يحزن والعين تدمع ، ولا نقول إلاَّ ما يُرضي ربنا ، وإنَّا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون** » والأنبياء بشر يجري عليهم ما يجري على سائر النَّاس من الحزن والفرح ، والتَّألم للمصائب والاستبشار بالنعم [١] .

[٩] قوله تعالى : ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ في هذه الكلمات يتجلَّى الشعور بتوحيد الألوهيَّة ، في هذا القلب الموصول ، إنَّ هذا الرجل الصالح يعلم من ربِّه ، ومن شأنه ، ما لا يعلم هؤلاء ، وهذا قمة الإيمان بالله ومعرفته سبحانه [٢] .

[١٠] هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيّه يعقوب عليه السلام حيث قضى بالتَّفريق بينه وبين ابنه يوسف الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة ، ويُحزنه ذلك أشد الحزن ، فحصل التفريق بينه وبينه مدَّة طويلة لا تقل عن (٣٠) سنة ، ويعقوب لم يُفارق الحزن قلبه في هذه المدَّة : ﴿ **وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ** ﴾، ثم ازداد به الأمر شدَّة حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني ، وهو مع هذا كله صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله ، وقد وعد من نفسه الصبر الجميل ، ولا شكَّ أنه وفَّى بما وعد به ، ولا يُنافي ذلك قوله : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ ، فإنَّ الشكوى إلى الله لا تُنافي الصبر ، وإنَّما الذي يُنافيه الشكوى إلى

---

(١) « دعوة الرسل » (ص١٤٧) .
(٢) في ظلال القرآن » (٤/٢٠٢٦) .

المخلوقين [(١)] .

[١١] في الآية : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ، يا للقلب الموصول !! ، تحسَّسوا بحواسكم في لطف وبصر وصبر على البحث ، ودون يأس من الله وفرجه ورحمته وكلمة ﴿ رَّوْحِ ﴾ أدق دلالة وأكثر شفافية وتوحي بالاسترواح في الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روح الله النَّدى [(٢)] .

[١٢] ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله النَّديّة أرواحهم ، الشاعرون بنفحاته المحببة الرخيّة فإنَّهم لا ييأسون من روح الله ، ولو أحاط الكرب واشتدَّ بهم الضيق ، وإنَّ المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه ، وفي أنس من صلته بربه ، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه ، وهو في مضائق الشدَّة ومخانق الكروب [(٣)] .

[١٣] إن المؤمن الصادق مهما طال عليه الكرب ، وطال أمده ودخل في كرب جديد تلو الكرب السابق ، فإنَّه لا يبقى قابعًا قاعدًا ليأتيه الفرج بدون بذل أي سبب ؛ لأن يعقوب عليه السلام بعد غياب ابنه الثاني لم يسكت ، ولم يكن منتظرًا الفرج دون عمل ، فتوجَّه إلى أبنائه بالرأي والأمر فهم الذين أضاعوا يوسف وأخاه - بحكم المسؤوليَّة التي ينبغي أن يتحمَّلوها - وهم الذين ينبغي أن يبحثوا عنهما ، فقال : ﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ ، هكذا كلهم رغم ذهاب سواد عينيه وقضى مدَّة طويلة على فقد يوسف [(٤)] .

---

(١) « تفسير السعدي (ص٣٦٦) .
(٢) « في ظلال القرآن » (٢٠٢٦) .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) « يوسف في القرآن » (ص٧١) .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) ﴾ [يوسف : ٨٨ - ٩٣] .

ما يُستفاد من الآيات :

[١] يكره للرجل أن يقول في دعائه : « تصدَّق علي » ؛ لأن الصدقة إنَّما تكون ممن يبتغي الثواب والله تعالى متفضِّل بالثواب بجميع النِّعم لا ربّ غيره ، وسمع الحسن رجلاً يقول : اللهم تصدَّق عليّ ، فقال : يا هذا ، إنَّ الله لا يتصدّق إنما يتصدق من يبتغي الثواب ، أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ** ﴾ ، قلْ : اللهم اعطني وتفضَّل عليَّ. ذكر هذا القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٥٥) ، ولكن هذه المسألة فيها نظر ، وليس الجواز ببعيد ، فقد ورد في حديث عمر ﷺ، وفيه : «**صدقة تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته** » في رخصة قصر الصلاة للمسافر [1] .

[٢] جواز إخبار الإنسان بما يجده ، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما على وجه التسخيط ؛ لأن إخوة يوسف قالوا : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ** ﴾ ، ولم يُنكر عليهم يوسف [2] .

---

(١) « صحيح مسلم » صلاة المسافرين (٦٨٦/ ٤) أبو داود رقم (١١٩٩) . مع عون المعبود ، والترمذي رقم (٣٠٣٤) .

(٢) « تفسير السعدي » (ص٣٦٦) .

[٣] ظهور الموقف الحزين في دخول إخوة يوسف مصر للمرة الثانية ، وقد أضرَّت بهم المجاعة ونفدت منهم النقود ، وجاؤوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد ، يدخلون وفي حديثهم انكسارًا لم يُعهد من قبل ، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيَّام : ﴿ **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ** ﴾ [١] .

[٤] بلوغ منظرهم المؤسف ذروته ، وعندما يبلغ الأمر بهم منتهاه إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار ، لا تبقى في نفس يوسف قدرة على المضي في تمثيل دور العزيز والتَّخفي عنهم بحقيقة شخصيّته ، فقد انتهت الدروس وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر لهم على بال ، فإذًا يترفَّق في الإفضاء بالحقيقة إليهم ، فيعود به إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدهم ولم يطَّلع عليه أحد إلاَّ الله ، ﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ** ﴾ [٢] .

[٥] ﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ** ﴾ ، أتاهم من جهة الدين ، وصاغ الجملة بصيغة الاستفهام ؛ ليُخفِّف عليهم وقع القول ، أي هل علمتم قبح ذلك العمل الذي عملتموه مع يوسف وأخيه ؟ ، وقبل أن يُتمم الجملة ختمها بكلمة اعتذار عنهم ، وهي قوله : ﴿ **إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ** ﴾ لا تعلمون قبحه ، فلذلك قدمتم عليه ، أي : هل علمتم قبحه فتُبتم إلى الله منه ؟ ؛ لأن الاستقباح يجر إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم ، ونصحًا لهم في الدين لا معاتبة ؛ إيثارًا لحق الله تعالى على حقِّ نفسه في ذلك المقام الذي يتنفَّس فيه المكروب ويتشفَّى المغيظ المحنق ، ويُدرك ثأره الموتور ، فلله أخلاق الأنبياء ما أسهلها ! ، ولله

---

(١) « في ظلال القرآن »(٤/٢٠٢٦) .
(٢) « في ظلال القرآن »(٤/٢٠٢٣) .

عقولهم ما أوزنها وأرجحها ! .

{ ٦ } نتخيَّل كيف رنَّ في آذانهم صوت لعلَّهم يذكرون شيئًا من نبراته ولاحت لهم ملامح وجه لعلَّهم لم يلتفتوا إليه ، وهم يرونه في سمت عزيز مصر، وأبَّهته وشبابه ، والتمعَ في نفوسهم خاطر من بعيد ﴿ **قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ** ﴾ (١) .

{ ٧ } ﴿ **قَالَ أَنَا يُوسُفُ** ﴾ ، أي أنا المظلوم ، والمراد قتله ، ولم يقل : « أنا هو» تعظيمًا للقصة .

{ ٨ } اجتماع الصبر والتَّقوى ، وهما سببان عظيمان من أسباب النصر للعبد على العدو من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين ، وعلى من ظلمه من المسلمين ، وقد ذكر الله تعالى الصبر والتَّقوى في غير موضع ، قال تعالى: ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)** ﴾ { آل عمران : ١٢٥ } ، وقال الله تعالى : ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦)** ﴾ { آل عمران : ١٨٦ } ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)** ﴾ { آل عمران : ١١٨ - ١٢٠ } .

(١) المصدر السابق والصفحة .

كما قرن الصبر بالأعمال عمومًا وخصوصًا ، فقال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس : ١٠٩] ، وفي اتِّباع ما أُوحي إليه التَّقوى كلها تصديقًا لخبر الله وطاعة لأمره ، وقال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾ [هود : ١١٤ ، ١١٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٥٥) ﴾ [غافر : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) ﴾ [طه : ١٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [البقرة : ١٥٣] [(١)] .

[٩] **سئل بعض الفضلاء** : لِمَ لَمْ يُعَرِّف يوسف إخوته بنفسه من أول مرة ليُبشِّروا أباهم به ؟ .

الجواب ما أجاب به الإمام ابن القيم - رحمه الله - في « الإغاثة الكبرى » .

قال رحمه الله :

لو عرَّفهم بنفسه في أول مرة لم يقع الاجتماع بهم وبأبيه ذلك الموقع العظيم ، ولم يحل ذلك المحل ، وهذه عادة الله سبحانه وتعالى في الغايات العظيمة الحميدة إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيَّأ له أسبابًا في المحن والبلايا ، والمشاق ؛ ليكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنَّة إليها بعد الموت وأهوال البرزخ والبعث والنشور

(١) « مجموع الفتاوى » (١٠/ ٣٧٩ ، ٣٨٠) .

والموقف والحساب والصراط ومقاساة تلك الأهوال والشدائد ، وكما أُدْخِلَ رسول الله ﷺ إلى مكَّة ذلك المُدخَل العظيم بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج ، ونصره ذلك النصر العزيز بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قاساه، وكذلك ما فعل برسله كنوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب عليهم السلام ، فهو سبحانه يوصل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التي تكرهها النفوس ، وتشق عليها ، كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، وربَّما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبب ما مثله سبب ، وبالجملة فالغايات الحميدة من خبايا الأسباب المكروهة الشَّاقة كما أن الغايات المكروهة المؤلمة في خبايا الأسباب المشتهاة المستلذة ، وهذا في حين خلق الله سبحانه وتعالى الجنَّة وحفَّها بالمكاره ، وخلق النار وحفَّها بالشَّهوات [(١)] .

[١٠] حسن التَّعليل في قول يوسف عليه السلام: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، أي من يتَّق محارم الله كما اتقيتها ويصبر عن معاصيه ، وعلى التَّعذيب في سبيل التَّقوى ، فإنَّ الله لا يضيع أحجره بل يُكافئه في الدنيا ويُثيبه في الآخرة .

[١١] الآن تُدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير في ذلك الرجل الكبير : ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ مُفاجأة عجيبة يُعلنها لهم يوسف ، ويُذكرهم في إجمال بما فعلوه به وبأخيه في دفعة الجهالة ، ولا يزيد سوى أن يذكر منَّة الله عليه وعلى أخيه مُعللاً هذه المنَّة بالتقوى والصبر وعدل في الجزاء [(٢)] .

---

(١) محمد رشيد رضا « تفسير سورة يوسف » (ص٧، ٨) .
(٢) « في ظلال القرآن » (٤/٢٠٢٧) .

[١٢] إن استخدام الفعل ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وهو مجزوم ، والعلامة حذف حرف العلَّة (الياء) ؛ ولأنه فعل الشرط ، وأثبت قبل - بخلافه عنه - ياءه هكذا « يتَّقي » معاملاً له معاملة الصحيح دلالة على وصف التَّقوى بالصحَّة الكاملة والممكنة الزائدة والملازمة لها في كل حال ، وفي قولهم ليوسف : ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾، وإتيانهم بالنون الخفيفة في ﴿ إن ﴾ بدلا من الثقيلة «إنَّ » فخفَّفوها تأكيدًا بالإيجاز للدلالة على الاهتمام بالإبلاغ في الاعتذار في أسرع وقت [١] .

[١٣] في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ حجَّة دامغة على الذين يتفاخرون بالأحساب والأنساب بدون تقوى وعمل صالح ، فيوسف عليه السلام لم يفتخر بحسب ولا نسب ، وإنَّما تحدَّث عن تكريم الله له بالتقوى والصبر ، لا بالنسب ، ففضل الله يوسف على إخوته بالتَّقوى لا بالنسب ، أمَّا النسب فنسبه ونسبهم واحد لأنهم أبناء رجل واحد ، وهو يعقوب عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات : ١٣] عليم سبحانه بمن اتّقاه وعمل صالحًا وصبر لطاعته ومرضاته .

[١٤] نتخيّل إخوة يوسف وهم تتمثل عيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف وكبّلهم الخزي والخجل وهم يواجهونه محسنًا إليهم ، وقد أساؤوا ، حليمًا بهم وقد جهلوا ، كريمًا معهم وقد وقفوا منه موقفًا غير كريم ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [٢] .

---

(١) « نظم الدرر » (٤/ ٩٣/ ٩٥) .
(٢) « في ظلال القرآن » (٤/ ٢٧ ٢٠) .

{ ١٥ } أنَّ الفرج مع الكرب وأنَّ مع العسر يسرًا ، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتدَّ به إلى أنهى ما يكون ، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب، ومسَّهم الضر ، أذن الله حينئذ بالفرج ، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجةً واضطرارًا ، فتمَّ بذلك الأجر وحصل السرور وعلم من ذلك أن الله يبتلي أولياءه بالشدَّة والرخاء والعسر واليسر ؛ ليمتحن صبرهم وشكرهم ويزداد بذلك إيمانهم ويقينهم وعرفانهم (١) .

{ ١٦ } منظر إخوة يوسف واعترافهم الذي يغمره الحياء ، وإقرارهم بالذنب يُقابله يوسف بالصفح والعفو وإنهاء الموقف المخجل شيمة الرجل الكريم، وينجح يوسف في الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل في الابتلاء بالشدَّة ، إنه كان من المحسنين ، ﴿ **قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ ، لا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم ، فقد انتهى الأمر من نفسي ، ولم تعدْ له جذور ، والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين (٢) .

{ ١٧ } حسن تحويل يوسف للحديث للتخفيف عنهم من الحياء والخجل إلى لون آخر شأن أبيه الذي ابيضَّت عيناه من الحزن ، فهو معجل إلى تبشيره ، معجل إلى لقائه ، معجَّل إلى كشف ما علق بقلبه من حزن ، وما ألمَّ بجسمه من ضنى ، وما أصاب بصره من كلال . ﴿ **اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ ، كيف عرف يوسف أنَّ رائحته سترد على أبيه بصره الكليل ؟ ذلك مما علمه الله ، والمفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة ، وما لها لا تكون خارقة ويوسف ويعقوب كلاهما نبي ورسول (٣) .

(١) « تفسير السعدي » (ص٣٦٦) .
(٢) « في ظلال القرآن » (٤/٢٠٢٧) .
(٣) المصدر نفسه والصفحة .

{ ١٨ } أنَّ قميص يوسف له شأن وأي شأن ؛ للأمور التالية :

(أ) لقد كان القـميص أول الأمر يحمل بصـمات يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ التي تشهد بكذب إخوته ، وتلك البصـمات التي استدلَّ منها يعـقوب على كذب بنيه حين جاؤوه بالقميص مُلـطّخًا بدم كذب مدعين أن الذئب قد أكله ، على حين أن القميص كان سليـمًا لم يُصب بخدش من ناب الذئب أو مخلبه ،

(ب) أنَّ الشـاهد قرأ على قـميص يـوسف الآثار التي تدل على براءته ، حين رآه قد قُدَّ من دُبُر لا من قُبُل . .

(جـ) أنَّ هذا القمـيص الذي بعث به إلى أبيه يـحمل إليه الشـفاء لبـصره والفرحة لقلبه [١] .

وقال بعض الأفاضل : حوت قصَّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ :

١ – قميص المكر والخديعة .
٢ – قميص البراءة .
٣ – قميص الشفاء .



(١) « القصص القرآني » عبد الكريم الخطَّابي (ص٤٨٥) .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾ { يوسف : ٩٤ - ٩٨ } .

ما يُستفاد من الآيات :

{ ١ } ريح يوسف ! ، كل شيء إلا هذا ، فما يخطر على بال أحد أن يوسف يُعَدُّ في الأحياء بعد هذا الأمد الطويل ، وأن له ريحًا يشمها هذا الشيخ الكليل ، ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ ، لولا أن تقولوا شيخ خرَّف ﴿ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ ، لصدقتم معي ما أده من ريح الغائب البعيد [١] .

{ ٢ } في الآية : ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ ، عبَّر بالفاء في ﴿ فَلَمَّا ﴾ التي تُفيد السرعة ، فصحَّحَ الله قول يعقوب ، وحقَّق وجدانه ، وفي قوله : ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ لم نجد فاصلاً بين المجيئ وبين إلقاء القميص على وجه أبيه ، ولم تذكر الآية كلامًا تخلَّل هذين الموقفين ؛ لأنَّ الموقف مُثير يقتضي السرعة ، فقد طال انتظار يعقوب عليه السلام لهذا الحدث السار ، وعبَّر بالفاء في ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ ، وهذا أيضًا يقتضي السرعة [٢] .

{ ٣ } إنَّما سألوه المغفرة ؛ لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يُسقط المأثم عنهم إلا بإحلاله ، وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلمًا في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالمًا له ، فإنه يجب عليه أن يتحلَّل له ويُخبره بالمظلمة وقدرها ، وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا ؟ ، هذا الأمر فيه خلاف ،

---

(١) « في ظلال القرآن » (٤/ ٢٠٢٧) .
(٢) « نظم الدرر » (٤/ ٩٧) .

والصحيح أنه لا ينفع ؛ فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبال ربَّما لم تطب نفس المظلوم في التحلل منها (١) .

{ ٤ } إنَّ النفس تشوَّقت إلى علم ما يقع بين يعقوب وبين أولاده بعد البشرى بحياة يوسف عليه السلام ومجيئ قميصه ، فدفع هذا العناء بقوله : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا ﴾ مُنادين بالأداة التي تدل على الاهتمام العظيم بما بعدها لما له من عظيم الوقع وتكرار الضمائر في ﴿ أَبَانَا ﴾ و﴿ اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ دون التصريح بأصحابها مما يوحي بوقوعهم في الذنب جميعًا ، واعترافهم جميعًا بذلك وإعلان توبتهم بطلب الاستغفار من أبيهم ، وفي استخدام أبيهم بتأجيل الاستغفار بـ﴿ سَوْفَ ﴾ التي تُفيد التَّسويف دلالة على أن طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منه إلى الشيوخ (٢) .

{ ٥ } أنَّ من رحمة الله للعبد العاصي أن جعل له فرجًا ومخرجًا بفتح باب التوبة والاستغفار قبل أن يموت ، وهذا من فضل الله العظيم الوهَّاب .



(١) « تفسير القرطبي »(٩/ ٢٦٢) .
(٢) « نظم الدرر »(٤/ ٩٨) .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف : ٩٩ - ١٠١] .

ما يُستفاد من الآيات :

[١] في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ ، لم نجد فاصلاً بين دخولهم على يوسف وبين إيوائه لأبويه ؛ لأن الموقف موقف إكرام وبهجة وسرور وأُنس يقتضي السرعة وعدم البطء ، وفي قوله : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ أتى بالشرط وهو ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ للأمن لا للدخول ؛ وذلك للأمن من جميع ما ينوب .

[٢] في دخولهم على يوسف وإيوائه لأبويه يا له من مشهد !، بعد كرّ الأعوام وانقضاء الأيام وبعد اليأس والقنوط ، وبعد الألم والضيق ، وبعد الامتحان والابتلاء وبعد الشّوق المضني والحزن الكامد ، واللهف الظامئ الشديد ، يا له من مشهد حافل بالانفعال ، والخفقات والفرح والدموع ، يا له من مشهد ختامي موصول بمطلع القصَّة ، ذلك في علم الغيب ، وهذا في واقع الحياة ، ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه [(١)] .

[٣] قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ

---

(١) « في ظلال القرآن »(٤/٢٠٢٨) .

السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، هذه الآية طويلة إذا قيست بما قبلها من آيات السورة ، وتحتوي ما بدر في يوسف من سرور من التَّرحيب بأبويه بعد الشوق الشديد ، والتلذذ بالحديث معهم ، وهكذا أوقات السرور والبهجة والأُنس يطول الحديث خلالها ، بخلاف أوقات الحزن ، فإنَّ جوَّها يُهيمن على قلَّة الحديث ، وخاصة من الحزين .

[٤] في قوله : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ، لم يذكر ما ألقوه في غيابة الجب استعمالاً للكرم ، لئلا يُذكر إخوته بصنيعهم بعد عفوه عنهم ، بقوله : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ .

[٥] في نداء يوسف عليه السلام بقوله : ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾ ، هذا النداء يُوحي بالتَّلذذ بذكر الأبوّة ، وفي قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أتى بـ﴿ قَدْ ﴾ ؛ دلالة على أن رؤياه قد تحقَّقت ، وقوله ﴿ رَبِّي ﴾ ، كأنه يقول : الذي ربَّاني بنعمته ، وأكَّدها بقوله ﴿ حَقًّا ﴾ بالمصدر ؛ ليزيد من توكيد تحقق الرؤيا وسطوعها ، واستخدام الباء في قوله: ﴿ أَحْسَنَ بِي ﴾ ، ولم يقل أحسن إليَّ ؛ دلالة على القرب من المحسن جلَّ جلاله ، والباء للإلصاق [١] .

[٦] في قول يوسف عليه السلام لأبويه : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ حيث قسَّم النزغ بينه وبينهم ولم يفضل أحدًا من الطَّرفين ، وفيه إشارة إلى عموم الإفساد للبنين ، وإشارة إلى تحقق ما بشر به يعقوب عليه السلام من إتمام النّعمة ، وكمال العلم ، والحكمة في ذكره لذلك في قوله: ﴿ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ

---

(١) « نظم الدرر » (٤/ ٩٨) بتصرف .

عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

{ ٧ } إنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدَّة وفقر وسوء حال أن يعترف بنعمة الله عليه وأن لا يزال ذاكرًا حاله الأولى؛ ليحدث لذلك شكرًا كلَّما ذكرها؛ لقول يوسف: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ (١) .

{ ٨ } لطف الله العظيم بيوسف حيث نقله في تلك الأحوال وأوصل إليه الشَّدائد والمحن ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات (٢) .

{ ٩ } أنَّه ينبغي للعبد أن يتملَّق لله دائمًا في تثبيت إيمانه ، ويُعمل الأسباب الموجبة لذلك ويسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة ؛ لقول يوسف عليه السلام : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٣) .

{ ١٠ } إننا نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج والجاه والسلطان والرغد والأمان ليتَّجه إلى ربه في تسبيح الشاكر والذاكر كل دعوته ، وهو في أبَّهة السلطان ، وفي فرحة تحقيق الأحلام أن يتوفَّاه الله مسلمًا وأن يلحقه بالصالحين ، وهكذا يتوارى الجاه والسلطان وتتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ولَمَّة الإخوان ، ويبدو مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربّه أن يحفظ له إسلامه حتَّى يتوفَّاه الله ، وأن يُلحقه بالصَّالحين بين يديه إنه النجاح المطلق في الامتحان الأخير (٤) .

{ ١١ } في الآية ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ

---

(١) المصدر نفسه والصفحة .
(٢) « تفسير السعدي » (ص٣٦٦) .
(٣) « في ظلال القرآن » (ص٣٦٦) .
(٤) « في ظلال القرآن » (٤/٢٠٢٨) .

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ نتأمل ما يلي :

(أ) يُنادي الله سبحانه بالربوبيّة وحذف أداة النداء ؛ لقرب الله منه ، فهو أقرب إلى داعيه من حبل الوريد .

(ب) اعتراف بما آتاه الله من الملك ، و ﴿ **من** ﴾ للتبعيض ، أي هذا الملك الذي ابتليت به ليس بشيء إذا قيس بملك الله سبحانه وتعالى ، فمن أنا بما معي من ملك مصر ؟ ، واعتراف آخر بما علمه الله وأكرمه من تأويل الأحاديث .

(جـ) نداء آخر في ﴿ **فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ مع حذف أداة النداء أيضًا ؛ لقرب الله منه .

(د) يقول ابن القيم - رحمه الله - : إن دعوة يوسف ربه بقوله : ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ** ﴾ جمعت هذه الآية ما يأتي :

١ - الإقرار بالتوحيد .

٢ - الاستسلام للرب .

٣ - إظهار الافتقار إليه .

٤ - البراءة من موالاة غيره سبحانه .

٥ - كون الوفاة على الإسلام أجلّ غايات العبد .

٦ - أنَّ ذلك بيد الله لا بيد العبد .

٧ - الاعتراف بالمعاد .

٨ - طلب مرافقة السعداء [١] .

---

(١) « التفسير القيّم » (ص٣١٨) .

{ ١٢ } أنه ينبغي للعبد ألا يتمنى الموت إذا نزل به ضرٌ خاص به أما إذا كان فتنة في الدين ، فيجوز سؤال الموت للأدلة التالية :

(أ) روى أحمد من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يتمنَّين أحدكم الموت لضرٍّ نزل به ، فإن كان لابد متمنيًا الموت ، فليل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي** » .

(ب) وفي الصحيحين قال ﷺ : « **لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍّ نزل به إما محسنًا فيزداد ، وإما مسيئًا فلعله يستعتب ، ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي** » .

(جـ) وروى أحمد من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال : جلسنا إلى رسول الله ﷺ ، فذكَّرنا ورقَّقنا ، فبكى سعد بن أبي وقَّاص وأكثر البكاء ، فقال : يا ليتني متُّ ، فقال النبي ﷺ : « **يا سعد أعندي تتمنَّى الموت ؟** » فردَّد ذلك ثلاث مرَّات ، ثم قال : « **يا سعد إن كنت خلقت للجنَّة فما طال عمرك ، وحسن عملك فهو خير لك** » .

وأما إنه إذا كان فتنة في الدين ، فيجوز سؤال الموت ، فهو كما قال الله تعالى إخبارًا عن السحرة لما أرادهم فرعون أن يرتدوا عن دينهم وتهدَّدهم بالقتل : ﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** (١٢٦) ﴾ {الأعراف : ١٢٦ } ، وقالت مريم لما جاءها المخاض، وهو الطلق ، إلى جذع النخلة: ﴿ **يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا** (٢٣) ﴾ {مريم : ٢٣ } لما تعلم من أن الناس سيقذفونها بالفاحشة ؛ لأنها لم تكن ذات زوج ، وقد حملت وولدت ، فيقول القائل: أنَّى هذا ؟، ولهذا واجهوها أولاً بأن قالوا : ﴿ **يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا** (٢٧) **يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** ﴾ {مريم: ٢٧ ،

٢٨] فجعل الله لها من ذلك فرجًا ومخرجًا، وأنطق الصبي في المهد، بأنه عبد الله ورسوله ، وكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه .

فعند حلوك الفتن في الدين يجوز سؤال الموت ، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر زمانه - لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلاَّ شدَّة ، قال : « اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسئموني » ، وقال البخاري - رحمه الله - لما وقعت له تلك المحن وجرى له ما جرى مع أمير خراسان : « اللهم توفني إليك » [١] .



(١) « تفسير ابن كثير » (٤/٣٣٨ ، ٣٣٩) .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف : ١٠٢ - ١١١] .

ما يُستفاد من الآيات :

[١] ما في القصَّة من الأدلة على صحَّة نبوة محمد ﷺ حيث قصَّ على قومه هذه القصَّة الطويلة ، وهو لم يقرأ كتب الأولين ، ولا دارس أحدًا يراه قومه بين أظهرهم صباحًا ومساء ، وهو أميّ لا يخط ولا يقرأ ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة ، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون .

[٢] أنَّ القصة لم تكن مُتداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد ﷺ ثم بُعث إليهم ، وفيها أسرار لم يعلمها إلاَّ الذين لامسوها من أشخاص القصَّة ، وقد غبرت بهم القرون ، وقد قال الله تعالى في مطلع السورة لنبيه ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ ، وهنا يعقب على القصَّة بعد تمامها ويعطف

ختامها على مطلعها ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ .

{ ٣ } أنَّ أكثـر الناس لا يُؤمنون بهذا القرآن وهم يمرون على الآيات المبـثوثة في صفحة الوجود ، فلا ينتبهون إليـها كالذي يلوي صفحة وجهه ، فلا يرى ما يُواجهه [(١)] .

{ ٤ } أنَّ الدعوة إلى الله سبيل رسول الله ﷺ وسبـيل أتباعه وأشرف مقامات العبد وأجلَّهـا وأفضلها : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

{ ٥ } أنَّ القرآن كثيرًا ما يدعو إلى التفكر والاعـتبار ومصير السابقين المكذِّبين ، إنَّ النظـر في آثار الغابرين يهز القلوب حتَّى قلوب المتجبرين آثارهم خاوية طـواهم الـفـناء : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [(٢)] .

{ ٦ } أن القرآن يُصـوّر ساعـات الحرج القاسـية في حـياة الرسل قُبـيل اللحظة الحاسمة التي يتـحقق فيها وعد الله وتمضي فيـها سنَّة الله ، يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

{ ٧ } أنَّ سنة الله في الدعـوات لابد من الشدائد ، ولابد من الكروب حـتَّى لا تبقى بقيّة من جهد ولا بقيّة من طاقة ، ثم يجيئ النصر بعد اليأس ، فيأتي النَّصر كي لا يكون رخيصًـا ، فتكون الدعوات هزلاً ، إنَّ الدعوة إلى الله

---

(١) « في ظلال القرآن » (٤/ ٢٠٣١) .
(٢) « في ظلال القرآن » (٢٠٣٦) .

ليست تجارة قصيرة الأجل ، والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الكافرة أو المجتمعات التي فيها الإسلام ، ولكنها غارقة في الفساد والمعاصي إلى أذنيها ، يجب أن يوطّن الداعي إلى الله نفسه على أن أنّه لا يقوم برحلة مُريحة ، ولا يقوم بتجارة ماديّة قريبة الأجل ، وأن يستيقن أنّ الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف ، وأن عدد الدعاة يكون دائمًا قليلاً جدًا ، ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق بعد جهاد يطول أو يقصر ، وعندئذ تدخل الجماهير في دين الله أفواجًا [١] .



(١) المصدر السابق نفس الصفحة .

لماذا كانت هذه القصَّة ؟

{ ١ } إنَّ في قصَّة يوسف عليه السلام ألوانًا من الشدائد في الجب وفي بيت العزيز وفي السجن ، وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس ، ثم كانت العاقبة خير للذين اتَّقوا ، كما هو وعد الله الصادق الذي لا يخيب ، وقصَّة يوسف نموذج من قصص المرسلين ، فيها عبرة لمن يعقل وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزَّلة من قبل على غير صلة بين محمد صلى الله عليه وسلم وهذه الكتب ، فما كان يمكن أن يكون حديثًا مفترى فالأكاذيب لا يصدّق بعضها بعضًا ، ولا تحقق هداية ولا يستروح فيها القلب المؤمن الروح والرحمة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ { يوسف : ١١١ } (١) .

{ ٢ } أن مطلع السورة وختامها يتوافقان كما توافق المطلع والختام في القصَّة وتجيئ التعقيبات في أول القصَّة وآخرها ، وبين ثناياها متناسقة مع موضوع القصَّة وطريقة أدائها وعباراتها كذلك ، فتحقق الهدف الديني كاملاً وتحقق السمات الفنيّة كاملة مع صدق الرواية ومطابقة الواقع في الموضوع (٢) .

{ ٣ } أنَّ القصَّة بدأت وانتهت في سورة واحدة؛ لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء فهي رؤيا تتحقق رويدًا رويدًا ويومًا بعد يوم ومرحلة بعد مرحلة فلا تتم العبرة بها كما لا يتم التَّنسيق الفني فيها، إلاَّ بأن يُتابع السياق خطوات القصَّة ومراحلها حتَّى نهايتها وإفراد حلقة واحدة منها في موضع

---

(١) « في ظلال القرآن » (٤/ ٢٠٣٦) .
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٠٣٧) .

لا يُحقق شيئًا من هذا كله كما يُحققه إفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين كحلقة قصّة سليمان مع ملكة سبأ أو حلقة قصّة مولد مريم، أو حلقة قصّة مولد عيسى، أو حلقة قصّة نوح والطوفان . إلخ ، فهذه الحلقات تفي بالغرض منها كاملاً في مواضعها ، أمّا قصّة يوسف فتقتضي أن تُتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** (٣) ﴾[يوسف : ٣] [١] .

[٤]أنَّ صاحب القصة كريم ، وحين سُئل رسول الله ﷺ عن أكرم الناس قال : « **أتقاهم** » قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « **فيوسف نبي الله ابن نبي الله ، ابن خليل الله** » ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : «**فعن معادن العرب تسألوني ؟ ، خيارهم في الجاهليّة خيارهم في الإسلام إذا فقهوا** »[صحيح مسلم (١٠٣/٧)] ، فحين تبادر إلى ذهن رسول الله ﷺ السؤال عن شخصية أخلاقيّة ذكر يوسف عليه السلام ، وكأنه حين قال: « **نبي الله ابن نبي الله ...** » ، يُريد أن يُبين أثر التربية أو الوراثة في الأخلاق، ولهذا قال بعد هذا : « **خيارهم في الجاهليّة خيارهم في الإسلام** » المعادن الأصيلة تظل أصيلة لا تصدأ [٢] .

[٥]لقد كان يوسف عليه السلام مثالاً للتربية السليمة ، إذا علمنا أنَّ التربية هي الجانب العملي للمنهج العلمي ، وهي بذلك تستتبع رقيًا ونماءً في الشخصيَّة ؛ لأنها لا تكفي بالعلم دون ممارسة ، فعلمي بقواعد الرياضة البدنيّة - مثلاً - ليس بشيء ما لم أُزاول الألعاب الرياضيّة ، وعلمي

---

(١)« في ظلال القرآن » (٢٠٣٧/٤) .
(٢)« يوسف في القرآن » (ص ٩٥) .

بالفيتامينات التي يحويها الطَّعام ليس بشيء ما لم أفد منه في تناول الطَّعام، فالتربية سلوك ينتهجه الفرد يستهدف به تقوية الروح والجسد ، ولابد أن تكون هناك بذرة في أطواء النفس تُساعد على نهوض الفرد ، وتقويته ألا وهي العقيدة الإسلاميّة .

{ ٦ } إن أثر التربية التي عاشها يوسف في كنف والديه ، وهو صغير ظلَّ يحرّك سلوكه نحو الخير إلى آخر مدى إذ كان أبوه - كما قرأنا - يذكره بأجداده إبراهيم وإسحاق ؛ ليتمثل أعمالهم دائمًا القدوة الحسنة .

{ ٧ } إن شعور الطفل بحب أبيه يعطيه طاقة عمل لا تستنفد بحثًا وراء حنان الناس وعطفهم وارتماء في أحضان غانية تراوده عن نفسه ، فقد قبل السجن ولم يقبل المضاجعة في غير ما أحل الله ، ونقول : « الحب » وليس الدلال الذي يُتلف الطفل ، فلا يتحمل في بعده شدة من شدائد الحياة .

{ ٨ } إنَّ جمال الخلقة يزداد وضاءة مع جمال النفس وكلاهما معين على السموّ والترقي في غير عُقد ، فعلى الشباب ألاَّ يهتموا بمظهرهم الخارجي دون الداخلي .

{ ٩ } لقد أُوتي يوسف حكمًا وعلمًا وهما مناط القيادة الصالحة الناجحة ، فمقتضى الحكم مراعاة ظروف النَّاس وأحوالهم ؛ لكي يُخطط القائد أو الرئيس أو الحاكم على علم ودراسة وتدبر للأمور بأمانة .

{ ١٠ } إنَّ نقطة الانطلاق لإصلاح أحوال الناس نشر عقيدة الإسلام في نفوسهم؛ ليكون عملهم خالصًا لله فلا يتظالمون ، ولكن يتحلون بخلق الصبر الجميل الذي لا يحمل حقدًا أو ضغنًا لأحد .

{ ١١ } إنَّ الظلم إذا عمَّ وطمَّ مجلبة لليأس بحيث تصير الأمور وقد اختلطت

فيها المعايير ، وأصبح الناس وهم لا يشعرون بالانتماء لدولة يُدافعون عنها إذا ادلهم الخطب ، وأسرعت النوائب إليهم من عدو مُغير ، وما أسوأ أن تختلف مقاييس الحق بالنسبة للرجال ، فالكبير له الحق ولو أخطأ ، وعلى الصغير تُقام الحدود ، وقد يحمل على الاعتذار دون خطأ يرتكبه إرضاءً لنزوة الرئاسة ، أو لقب كبير وحسب ، ولقد رأى يوسف الظلم حين اتَّهمته المرأة كذبًا ، وكان لها من السلطان في ظل مجتمع فاسد ما جعلها تُلقي به في السجن لمجرد أنها من علية القوم ، ولكن يوسف أصرَّ على أن تظهر براءته واضحة العيان .

{ ١٢ } والمجتمع الراشد لا يتهاون في ذرة عدل تضيع وهي تتلألأ بين ناظريه ، ولهذا قيل : إن الشعور بالظلم - لا الظلم - هو الذي يلد التوارث ، وإذا لم يكن شعور بالظلم من جانب الناس ، فإن على من يتولَّى مقاليد الأمور أن يرعى الله وحده ، ذلك أنَّ الله لا يظلم أحدًا .

{ ١٣ } إن الظلم إذا بلغ مبلغًا تكون معه الحياة أدنى قيمة من الموت فـ﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** ﴿١٢﴾ ﴾ { البروج : ١٢ } ، وقد يتمثل هذا البطش في ثورة الأرض واحتجاجها على أن لا تؤتي خيراتها لمن لا يستحق الخير ، وقد شهد عصر يوسف مجاعة ، ولم يُنقذ المجتمع منها غير حكمة يوسف عليه السلام .

{ ١٤ } إن بطش الله قد يتمثَّل في نزع الحكم وإعطائه لمن يستحق لقب «العزيز»، وما أكبره من لقب اختفي اسمه في ركام الأباطيل ، وظهر اسم يوسف في سماء الحكم وعلياء المجد ، وهكذا ينبغي على من يتولَّى مقاليد الأمور أن يعمل على تستوي القاعدة الجماهيريّة على عدل وإنصاف وقد حكى في هذا الصدد أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز كتب إليه يستأذنه

في تحصين المدينة ، ويبدو أن عمر لم يرَ أنَّها في حاجة إلى تحصين (ماديّ)، فردَّ عليه : « حصنها بالعدل ونقّ طرقها من الظلم » [1] ، وهذا الرد الموجز يحمل أسمى المعاني لبناء المجتمع النظيف القوي الذي لا يتفشّى فيه النفاق والارتداد قويم الأخلاق .

[١٥] إن يوسف عليه السلام ضرب أروع المثل في محاسبة النفس أن تظلم : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) ﴾ [يوسف : ٧٩] ، فاستعاذ بالله من الظلم ، وتعبير ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ لم يرد في القرآن غير مرتين كلتاهما على لسان يوسف عليه السلام ، من هنا تدرك كم كان يوسف يخاف أن تعلق في نفسه شائبة ظلم .

[١٦] لقد سما يوسف فوق الشهوات حين برز في ذهنه معنى الظلم ، ووضع أمام عينيه حدود الله ، ولم يشأ تجاوزها ، لم يقل : ساعة لذة ، ثم يُبدل من بعد ظلم حسنًا والله غفور رحيم .

[١٧] ما أيسر العدل كلامًا ، ولكنه في التنفيذ صعب على النفس الجحود التي لم تتروض نفسها على فعل الخير ، ولو كان تحقيق العدل لا يُكلف أحدًا في ماله أو طاقته ، فقد يُبدي الناس تعاطفًا مظهريًا على المظلوم تنفيسًا عن وجيعة وسابقة ، من الظلم أو الظالم ، ولكنهم سرعان ما يظلمون إذا تمكن سلطانهم في مجال الأعمال . . . يوسف في غيابة الجب مع أن للطفولة سحرها الذي يجذب إليها ، فلا تُحاول قتلها أو الانتقام منها بصورة ما إلا سلبت منها الرحمة .

[١٨] إنَّ ردائة الأخلاق وضعف الهمَّة وراء المثل القائل : « المساواة في الظلم عدل » فالحر يأبى على نفسه وعلى غيره ولا يُريح نفسه أن يرى غيره يتألم

(١) « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي (ص١١٠) .

مثله ، فالمساواة مطلوبة ، ولكن بالعدل ، والعدل يتحقق إذا سأل كل ذي سلطة نفسه : هل التصرف الذي أصدر ينبغي أن يكون مبدأ للجميع ؟ فإذا أجاب : نعم ، وهو يتحرَّى الحق ويخشى الله في عمله ، فما يصدر عنه حينئذ عدل .

{ ١٩ } جاءت قصَّة يوسف في معرض واحد في القرآن ، وفي ثمان وتسعين آية ، ابتداء من الآية الرابعة من السورة إلى الآية الواحدة بعد المئة ، وهذه ظاهرة لم تكن في قصة من الأنبياء ، حيث تتعدد المعارض ، أو تتوزَّع المشاهد في كل قصَّة ، فتجيئ القصَّة في أكثر من سورة أو في مواضع مُتباعدة من السورة ، حتَّى لقد تجيئ بعض القصص في أكثر من موضع في القرآن كقصَّة موسى ، التي عدَّ العلماء ذكرها في مئة وعشرين موضعًا ، وهذا يلفتنا إلى الإعجاز المبين في النظم القرآني يجعله يستولي على قارئ القصَّة أو المستمع إليها من روعة الجلال ويقظة الوجدان على امتداد العرض ، وتعدد المشاهد ، دون أن يفقد الشعور وحدته ، ودون أن يجد المتلقي مجالاً للتحرك خارج مسارها [١] .

{ ٢٠ } أن يوسف عليه السلام كان المثل الإنساني في العفَّة والأمانة .

{ ٢١ } أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير ، تقوده كيف شاء هواها ، وأنه كان فاقدًا للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس عبيد الشهوات .

{ ٢٢ } أنه كان مطواعًا لها ، وجملاً ذلولاً زمامه في يدها حتَّى أنساه ذلك ما عاين من الآيات [٢] .

---

(١) « القصص القرآني » لعبد الكريم الخطيب (ص٣٩٦) .
(٢) محمد رشيد رضا (ص٤) .

{ ٢٣ } أنها قصَّة نبي واحد وجد في غير قومه قبل النبوة صغير السن وبلغ أشده واكتهل ، فنبئ ، وأُرسل ودعا إلى دينه .

{ ٢٤ } أنها أطول قصَّة في القرآن الكريم ، افتتحت بثلاث آيات تمهيديّة في ذكر القرآن وقصصه .

{ ٢٥ } أنَّها كانت إلى تمام المئة في تاريخ يوسف ختمت بـ (١١) آية في الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة محمد ﷺ ، وإعجاز كتابه والعبرة العامة بقصص الرسل عليهم السلام .

{ ٢٦ } أنّ العنصر الإنساني يتجلَّى في القصَّة التي لم تُسَقْ لمجرد ما يُسمَّى بالفن، إنَّما سيقت للعبرة والعظة، وسيقت لتُعالج قضيَّة العقيدة والدَّعوة [١] .

{ ٢٧ } إثارة هذه القصَّة من مشاعر جمَّة وعواطف متباينة .

{ ٢٨ } أنها كثيرة الاستبشار والأمل والدَّهشة والحيرة والتَّعجب والتلهف والعطف والرِّقَّة والحزن والأسى والإعجاب بالرجولة والذهول والخجل والتَّألم للظلم .

{ ٢٩ } الاطمئنان إلى نصرة الحق والفرح والسرور لعاقبة المخلصين [٢] .

{ ٣٠ } أنَّ يوسف عليه السلام قد أُوتي شطر الحسن ، والحسن حُسْنان ، حسن الظاهر كاملاً جمال الصورة ، وحسن الباطن .. جمال الروح فافتتن النسوة بحسن الظاهر ، حسنِ الجسد ، ولم يلحظن حسنِ الباطن المكنون، فلما تبيّن لهن : ﴿ **وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ(٣١)** ﴾ { يوسف : ٣١ } وغاب عنهن أن بحر جماله الباطن .. يذوب فيه جمال الظاهر [٣] .

---

(١) المصدر السابق(ص١) .
(٢) « يوسف عليه السلام ، نظرات في التفسير » عبد الحميد كحيل داود(ص١١) .
(٣) محمود شلبي « حياة يوسف »(٩٠٦) .

{ ٣١ } لقد كانت قصَّة يوسف أحسن القصص بما فيها من عواطف بشريَّة أخرى كبرى غرائز الغل والحقد ، المبثوثة في ثنايا جبلات البشر مثل الإخوة غير الأشقَّاء على أخ لهم من أبيهم ، غلٌّ يدفعهم إلى التفكير في قتل أخيهم وبما فيها من عاطفة الأبوّة في ذروتها ، حين أحبَّ يعقوب يوسف حبًا ملك عليه فؤاده ، وبما فيها من عاطفة الصبر الجميل ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾ [يوسف : ١٨]، وكيف صبر الأب صبرًا جميلاً . . . لا شكوى فيه ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦)** ﴾ . [يوسف : ٨٦] .

{ ٣٢ } وبما فيها من أعاجيب مكنونات المقادير أولئك الإخوة كان تدبيرهم الخبيث وكان تدبير القدر ﴿ **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** ﴾ [يوسف : ٦] أرادوا قتله وأراد الله أن يكون نبيًا وملكًا عظيمًا ، وجاؤوه وأعلنوها : ﴿ **تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ** ﴾ .

{ ٣٣ } أنَّها أحسن القصص بما فيها من إظهار مكنونات عجائب معادن الأنبياء وبما فيها من تجلي عبقريّة يوسف في إدارة اقتصاديّات مصر ، فكانت خيرًا عميمًا لأهل مصر وللمنطقة كلها ، وبما فيها من الخاتمة السعيدة التي يتفضل الله بها على كل من اتَّقى وصبر ﴿ **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)** ﴾ [يوسف : ٩٠] ، وبما فيها من ظلمات الشهوات شهوة الجنس وكيف تدفع امرأة العزيز أن تعرض نفسها عرضا على يوسف ونور التَّعالي على المعصية ﴿ **مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ** ﴾ [يوسف : ٢٣] ، وظلمات شهوة الجسد وكيف دفع إخوة يوسف إلى أحقر تدبير إذ يجتمع عشرة رجال على صبي ويفعلون ما يفعلون [1] .

(١) المصدر السابق والصفحات .

الأداء الفني الإسلامي للقصّة

{ ١ } امرأة العزيز . . في صُرع الشهوة التي تعمى عن كل شيء في اندفاعها الهائج الكاسح ، فلا تحفل حياءً أنثويًا ولا كبرياء ذاتيًا ، كما لا تحفل مركزًا اجتماعيًا ولا فضيحة عائليّة ، والتي تستخدم مع ذلك كل مكر الأنثى وكيدها ، سواء في تبرئة نفسها أو حماية من تهوى من جرائر التهمة التي ألصقتها به ، وتحديد عقوبة لا تودي بحياته ، أورد الكيد للنسوة من ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها ، أو التّبجح بشهوانيّتها أمام انكشاف ضعف عزيمتها وكبريائها أمام من تهوى ، ووقوف نسوتها معًا على أرض واحدة ، حيث تبدو فيها الأنثى متجرّدة من كل تجمل المرأة وحيائها ، الأنثى التي لا تُحسن في إرواء هواتفها الأنثويّة أمرًا يُعاب أصلاً ومع صدق التّصوير والتّعبير عن هذا النموذج البشري الخاص بكل واقعيّته ، وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعتها ، فإنَّ الأداء القرآنى - الذي ينبغي أن يكون هو النموذج الأعلى للأداء الفني الإسلامي - لم يتخلَّ عن طابعه النظيف مرَّة واحدة ؛ حتَّى يصوّر لحظة التّعري النفسي والجسدي الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها ، لينشئ ذلك المستنقع الكريه الذي يتمرَّغ في وحله كتَّاب «القصَّة الواقعيَّة»، وكتَّاب « القصَّة الطبيعيّة » في هذا العصر النكد بحجة الكمال الفني في الأداء [١] .

{ ٢ } والواقعيَّة الصادقة الأمينة النظيفة السليمة في الوقت نفسه ، لا تقف عند واقعيّة الشخصيَّات الإنسانية التي تحفل بها القصَّة في هذا المجال الواسع ،

---

(١) « في ظلال القرآن »(٤/١٩٥٣ ، ١٩٥٤) .

على هذا المستوى الرائع ، ولكنها تتجلَّى كذلك في واقعيَّة الأحداث والسرد والعرض وصدقها وطبيعتها في مكانها وزمانها ، وفي بيئتها وملابساتها . . . فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجيئ في أوانها وتجيئ في الصورة المتوقَّعة لها ، وتجيئ في مكانها من مسرح العرض ، متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميّتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها . . والأمر الملحوظ في الشخصيات أيضًا .
حتَّى لحظات الجنس في القصة أيضًا أخذت مساحتها كاملة ، في حدود المنهج النظيف اللائق بالإنسان في غير تزوير ولا نقص ولا تخريف للواقعيَّة البشريّة في شمولها وصدقها وتكاملها ، لكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقيَّة الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعيَّة الكائن البشري ، وكما لو كانت هي محور حياته كلها ، وهي كل أهداف حياته التي تستغرقها كما تحاول الجاهليّة أن تُفهمنا أن هذا وحده هو الفن الصادق ، إن القصة الماجنة تمسخ الكائن البشري باسم الصدق الفني ، وهي تقف أمام لحظة الجنس كما لو كانت هي كل وجهة الحياة البشريَّة بجملتها ، فتنشئ منها مستنقعًا واسعًا عميقًا ، مُزيَّنًا في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانيَّة ، وهي لا تفعل هذا إلا لأنها هي مخلصة في تصوير هذا الواقع إنما تفعله لأن «بروتوكولات صهيون» تُريد هذا ، تُريد تجريد الإنسان من كل شيء إلا من حيوانيته ؛ حتَّى لا يوصم اليهود وحدهم بأنهم هم الذين يتجرَّدون من كل القيم غير الماديّة ، وتُريد أن تُغرق البشريَّة كلها في وحل المستنقع ؛ كي تنحصر فيه كل اهتماماتها وتستغرق فيه كل طاقاتها ، فهذه هي أضمن سبيل لتدمير البشريَّة حتَّى تجثو على ركبتيها خاضعة لملك صهيون المرتقب الملعون ، ثم تتخذ من هذا الفن وسيلة إلى هذا الشر كله ، إلى جانب ما

تتخـذه من نشر المذاهب « العلميـة » المؤدية إلى ذات الهدف ، تارة باسم «الداروينيـة » وتارة باسم « الفـرويدية » وتارة باسم « الماركـسيـة » . . . وكلها سواء في تحقيق المخططات الصهيونية الرهيبة (١) .

[٣] إنَّ القصـة غنيَّة بالعنـاصر الفنيَّة وبـالعنصر الإنسـاني ، حافلة بالانفـعال والحـرزكـة وطريقة الأداء تُـبرز هذه العـناصر إبرازًا قـويًا ، فـضـلاً على خصـائص التَّعـبيـر القرآنيـة المؤثرة ، ذات الإيقاع المناسب لكـل جو من الأجواء التي يُصوّرها السياق ، في القـصة يتجلَّى عنصر الحب الأبوي في صـور ودرجات مـتنوعة واضـحة الخـطوط والظلال ، في حب يعقـوب ليوسف وأخيه وحبه لبقيَّة أبنائـه ، وفي استجابته الشعوريَّة للأحداث حول يوسف من أول القصَّة إلى آخـرها ، وعنصر الغيرة والتحـاسد بين الإخوة من أمـهات مـختلفـات بحـسب ما يرون من تنوع صـور الحب الأبوي ، وعنصر التفاوت في الاستجابات المختـلفة للغيرة والحسد في نفوس الإخوة فبعضهـم يقوده هذا الشعور إلى إظهار جريمة القتل ، وبعضـهم يُشير فقط بطرح يوسف في الجب يلتقطه بعض السيارة ؛ نفورًا من الجريمة .

وعنصـر المكر والخداع في صـور شتَّى ، من مكر إخـوة يوسف به ، إلى مكر امرأة العـزيز بيوسف وبزوجها وبـالنسوة ، وعنصر الشهـوة ونزواتها والاستجابة لهـا بالاندفاع أو بالإحجام ، وبالإعجاب والتَّـمني والاعتصام والتأني وعنصـر الندم في بعض ألوانه والعفـو في أوانه ، والفرح بتـجمع المتفارقين (٢) .

---

(١) « في ظلال القرآن » (٤/ ١٩٥٩) .
(٢) المصدر السابق (٤/ ١٩٦٢) .

كثرة ذكر العلم في السورة

في سورة يوسف ورد ذكر العلم كثيرًا ، وما يُقابله من الجهل وقلَّة العلم في مواضع شتَّى ، وهي :

- ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ . [يوسف : ٦] .
- ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾ . [يوسف : ٢١] .
- ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ . [يوسف : ٢٢] .
- ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ﴾ . [يوسف : ٣٤] .
- ﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ . [يوسف : ٣٧] .
- ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ . [يوسف : ٤٠] .
- ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) ﴾ . [يوسف : ٤٤] .
- ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾ . [يوسف : ٤٦] .
- ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ

النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾ [يوسف : ٥٠].

● ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ .
[يوسف : ٥٢] .

● ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾ [يوسف : ٥٥].

● ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ .
[يوسف : ٦٨] .

● ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) ﴾
[يوسف : ٧٣] .

● ﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾ [يوسف : ٧٧]

● ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٠].

● ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) ﴾ [يوسف : ٨١].

● ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) ﴾ [يوسف: ٨٣].

● ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾ .
[يوسف : ٨٦] .

● ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) ﴾ .
[يوسف : ٨٩] .

● ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) ﴾ [يوسف :٩٦] .

● ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ .
[يوسف : ١٠١] .

وهي ظاهرة بارزة تُلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفه في هذا الكتاب الكريم (١) .

---

(١) « في ظلال القرآن »(١٩٦٦/٤ ، ١٩٦٧) .

مواقف إسلاميَّة يوسفية

قاضي صفد :

قال العالم عبد القاهر التبريزي الحراني قاضي صفد (ت ٧٤٠ هـ) :

قدم بي أبي دمشق وأنا ابن ست سنين ، فمات فكفلني عمي عبد الخالق ، وكان أبي خلَّف مالاً ، فخلا بي عمِّي وخنقني حتَّى غُشي عليَّ ، فرماني في حفرة ، وطمَّ عليَّ التراب ، فمرَّ بعد ذلك شخص جلس يبول في الحفرة التي طمَّ عليَّ عمي فيها التراب ، فرأى بعض رجلي ، فاستخرجني ، فقمت أعدو إلى الماء ، فشربت من شدَّة العطش ، قال : وتوجَّهت إلى بعض أقاربنا من النساء ، فأقمت عندها مُختفيًا حتَّى بلغت وحفظت القرآن ، فمررت يومًا فإذا بعمّي ، فقال : هاه جمال الدين امش بنا ، قال : فما كلمته ، ثم رأيته مرة أخرى بالجامع فغيَّبت منه ، وتوجَّه هو إلى اليمن وأقام بها [١] .

أنت بطَّال ونحن بطَّالون :

كان بمكَّة امرأة جميلة ، وكان لها زوج ، فنظرت يومًا إلى وجهها في المرآة، فقالت لزوجها : أترى أحدًا يرى عذا الوجه ولا يُفتتن به ؟ .

قال : نعم ، قالت : مَنْ ؟ ، قال : عبيد بن عمير .

قالت : فائذن لي فيه فلأفتنه ، قال : قد أذنت لك .

قال : فأتته كالمُستفتية ، فخلا بها في ناحية من المسجد الحرام ، فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر .

فقال لها : يا أمة الله استتري ، فقالت : إني قد فُتِنْت بك .

قال : إني سائلك عن شيء ، فإن أنت صدقتيني نظرت في أمرك .

---

(١) « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » لابن حجر العسقلاني (٢/ ٣٩٤) .

قالت : لا تسألني عن شيء إلا صدقتك .

قال : أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرُّك أن أقضي لك هذه الحاجة ؟ .

قالت : اللهم لا ، قال : صدقت .

قال : فلو أنَّ الناس أُعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك ؟ أكان يسرّك أني قضيتها لك ؟ .

قالت : اللهم لا ، قال : صدقت .

قال : فلو أردت المرور على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين ، أكان يسرّك أني قضيتها لك ؟ .

قالت : اللهم لا ، قال : صدقت .

قال : فلو جيء الميزان وجيء بك فلا تدرين أخفٌّ ميزانك أم يثقل ، أكان يسرّك أني قضيتها لك ؟ .

قالت : اللهم لا ، قال : صدقت .

قال : فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة ، أكان يسرّك أني قضيتها لك ؟ .

قالت : اللهم لا ، قال : صدقت .

قال : اتَّقي الله ، فقد أنعم عليك ، وأحسن إليك .

قال : فرجعت إلى زوجها ، فقال : ما صنعت ؟ .

قالت : أنت بطَّال ونحن بطَّالون ، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة ، فكان زوجها يقول : ما لي ولعبيد بن عمير ، أخذ عليَّ امرأتي ، كانت كل ليلة عروسًا فصيّرها راهبة (١) .

---

(١) « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » لابن القيّم (ص٣٣٠ ، ٣٣١) .

الشاب العابد وعمر بن الخطّاب :

كان فتى من أهل المدينة يشهد الصلوات كلها مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان عمر يفتقده إذا غاب ، فعشقته امرأة من أهل المدينة ، فذكرت ذلك لبعض نسائها ، فقالت : أنا أحتال لك في إدخاله عليك ، فقعدت له في الطريق ، فلمَّا مرَّ بها قالت له : إني امرأة كبيرة السن ولي شاة لا أستطيع أن أحلبها ، فلو دخلت فحلبتها لي ، وكانوا أرغب شيء في الخير ، فدخل فلم يرَ شاة ، فقالت : اجلس حتَّى آتيك بها ، فإذا المرأة قد طلعت عليه ، فلمَّا رأى ذلك عمد إلى محراب في البيت ، فقعد فيه ، فأرادته عن نفسه ، فأبى ، وقال : اتقي الله أيّتها المرأة ، فقعد فيه ، فأرادته عنه ولا تلتفت إلى قوله ، فلمَّا أبى عليها صاحت عليه ، فجاؤوا .

فقالت : إنَّ هذا دخل عليَّ يُريدني عن نفسي فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه، وأوثقوه ، فلمَّا صلَّى عمر رضي الله عنه الغداة فقده ، فبينا هوكذلك إذ جاؤوا به في وثاق ، فلما رآه عمر ، قال : اللهم لا تخلف ظني به ، قال : ما لكم ؟ ، قالوا : استغاثت امرأة بالليل فجئنا فوجدنا هذا الغلام عندها ، فضربناه وأوثقناه ، فقال عمر رضي الله عنه : أصدقني ، فأخبره بالقصَّة على وجهها ، فقال له عمر : أتعرف العجوز ؟ فقال : نعم إن رأيتها عرفتها ، فأرسل عمر إلى نساء جيرانها ، وعجائزهن ، فجاء بهن فعرضهن ، فلم يعرفها فيهن حتَّى مرَّت به العجوز ، فقال : هذه يا أمير المؤمنين ، فرفع عمر عليها الدرة وقال : أصدقيني ، فقصَّت عليه القصَّة كما قصَّها الفتى ، فقال عمر : الحمد لله الذي جعل فينا شبيه يوسف [1] .

(١) المصدر السابق (ص٣٣٩، ٣٤٠) .

أبو ريحانة الصحابي الجليل :

قفل أبو ريحانة من غزوة له فتعشَّى ثم توضَّأ وقام إلى مسجده ، فقرأ سورة فلم يزل حتَّى أذَّن المؤذن ، فقالت له امرأته : يا أبا ريحانة غزوت فتعبت ، ثم قدمت ، أفما كان لنا فيك حاجة ونصيب ؟ ، فقال : بلى والله ، ولكن لو ذكرتك لكان لك عليَّ حق [١] .

عرضت عليه فتاة جميلة فلم يعص الله :

الملك مظفر الدين موسى بن العادل (ت٦٣٥هـ) يقول : لقد كنت يومًا قاعدًا هـهنا ، فقال الخادم : على الباب عجوز تستأذن من عند بنت شاه أرمن صاحب خلاط سابقًا ، فأذنت لها ، فناولتني ورقة تذكر أن الحاجب عليّاً قد قصدها وأخذ ضيَعها وقصد هلاكها ، وتخاف منه أن تخرج ، فكتبتُ على الورقة بإطلاق الضيعة ونهي الحاجب عنها . .

فقالت العجوز : هي تسأل الإذن بالحضور ، فلها سرٌّ تذكره للسلطان .

فقلت : بسم الله ، فغابت ساعة ثم جاءت ومعها امرأة ما يُمكن في الدنيا أحسن من قدّهاولا أظرف من شكلها ، كأن الشمس تحت نقابها، فحذقت ووقفت ، فقمت لها بكونها بنت شاه ، فسفرت عن وجهها ، فأضاءت منها المنظرة ، فقلت : غطِّي وجهك واذكري حاجتك .

فقالت : مات أبي واستوليتم على البلاد ولي ضيعة أعيش منها أخذها الحاجب مني ، وما أعيش إلا من عمل النقش ، وأنا ساكنة في دور الكراء .

قال : فبكيت وأمرت لها بقماش وسكن يصلح لها ، وقلت : بسم الله في حفظ الله ودعته .

فقالت العجوز : ما جاءت إلاَّ لتحظى بك الليلة .

---

(١)« الإصابة » (٢/١٥٣ ، ١٥٤).

قال : فأوقع الله في قلبي تغيّر الزمان ، وتملك غيري ، وتحتاج بنتي أن تقعد مثل هذه القعدة ، فقلت : يا عجوز معاذ الله ، والله ما هو من شيمتي ولا خلوت بغير محارمي ، خذيها وانصرفي ، وهي العزيزة الكريمة ، ومهما كان لها من الحوائج ، فهذا الخادم تنفذ إليه ، فقامت وهي تبكي وتقول بالأرمينية : صان الله حريمك ، فلما خرجت قالت لي نفسي : في الحلال مندوحة عن الحرام تزوَّجها ، فقلت لنفسي : يا خبيثة أين الحياء والكرم والمروءة؟ والله لا فَعَلته أبدًا (١) .

لذَّة مسألة في العلم ألذ عنده من التلذذ بالجارية :

مرَّ العالم اللغوي أبو بكر الأنباري (ت٣٢٧هـ) يومًا بسوق النخَّاسين ، فرأى جارية تُعرض جميلة الصورة كاملة الوصف ، قال : فوقعت في قلبي ثم مضيت إلى دار الخليفة الراضي بالله ، فقال : أين كنت إلى الساعة ؟ فعرَّفته الأمر وأخبرته بالجارية ، فأمر بشرائها وحُمِلَتْ إلى منزلي ولم أعلم ، فجئت فوجدتها في المنزل ، فقلت لها : اعتزلي إلى الاستبراء ، وكنت أطلب مسألة قد خفيت عليَّ ، فاشتغل قلبي بالجارية ، فقلت للخادم : خذها وامض بها إلى النَّخَّاس ، فليس يبلغ قدرها أن يشغل قلبي عن عملي ، فأخذها الغلام ، فقالت : دعني حتَّى أُكلمه ، فقالت لي : أنت رجل لك محل وعقل ، فإذا أخرجتني ولم تُبيِّن ذنبي لم آمن من أن يظن الناس ظنًا قبيحًا ، فعرِّفنيه قبل أن تُخرجني ، فقلت : ما لك عندي ذنب ، غير أنك شغلتني عن علمي ، فقالت: هذا سهل عندي ، قال : فبلغ الراضي ما كان من أمري ، فقال : لا ينبغي أن يكون العلم عند أحد أحلى منه في قلب هذا الرجل (٢) .

---

(١) « شذرات الذهب »(٥/١٧٥ ، ١٧٦) .
(٢) « إرشاد الأريب »(١٨/٣٠٦) .

يعقوب بن داود الوزير :

كان يعقوب بن داود بن طهمان (ت١٨٢هـ) وزيرًا للمهدي العبَّاسي ، وقرب من قلبه ، وغلب على أمره ، ثم إن المهدي أمره بقتل أحد العلويين ، فقال : قد فعلت ولم يفعل ، وكان ذلك في سنة ١٨٦هـ ، فسجنه المهدي بسبب ذلك ، ويُحكى عن نفسه من هول السجن وطول مدَّته ، فقال : حبسني المهدي في بئر وبُنيت عليَّ قبَّة ، فمكثت فيها (١٥) سنة ، حتَّى قضى صدرًا من خلافة الرشيد ، وكان يُدلي إليَّ كل يوم رغيف ، وكوز من ماء ، وأوذن بأوقات الصلوات ، فلما كان في رأس (١٣) سنة أتاني آت في منامي فقال :

حنا على يوسف ربٌّ فأخرجه ... من قعر جبٍّ وبيتٍ حوله غَمَمُ

قال : فحمدت الله ، وقلت أتى الفرج .

قال : فمكثت سنة لا أدري شيئًا ، فلما كان رأس السنة أتاني ذلك الآتي في منامي ، فقال لي :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريبُ
فيأمن خائف ويفُك عانٍ ... ويأتي أهله النأى القريبُ

فلمَّا أصبحت نوديت ، فظننت أني أوذن بالصلاة ، فدُلّي إليَّ حبل أسود ، وقيل لي : اشدد به وسطك ففعلت ، فأخرجوني ، فلمَّا قابلت الضوء عُشي بصري ، فانطلقوا بي ، فأدخلوني على الرشيد ، فقيل لي : سلّم على أمير المؤمنين ، فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا أمير المؤمنين المهدي .

فقال : لست به .

قلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته أميرالمؤمنين الهادي .

قال : ولست به .

قلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته أمير المؤمنين . .

قال : الرشيد ، فقلت : الرشيد .

فقال : يا يعقوب ؛ لأنه والله ما شفع فيك إليَّ أحد غير أني حملت الليلة صبية لي على عنقي ، فذكرت حملك إياي على عنقك وأنا صغير ، فرثيت لك من المحل الذي كنت فيه ، فأفرجت عنك ، قال : فأكرمني وقرَّب مجلسي .

بعد هذا السجن الطويل الزمن والفترة الطويلة المؤسفة لم يصف العيش لهذا الوزير بعد خروجه من السجن ، بل واجه شخصًا آخر يحسده ، ويخشى أن يحظى بمنصب الوزارة ليحل محله ، فيسلبها منه الرشيد ، هذا الحاسد هو يحيى بن خالد بن برمك ، ففطن هذا الوزير الذي أُطلق من السجن لهذه المواجهة ، فاستأذنه للحج ، فأذن له ، فلم يزل مُقيمًا بمكَّة حتَّى مات - رحمه الله -[1] .

غيرة أبي جندب على زوجه :

أولع أبو السيارة بامرأة أبي جندب يُراودها عن نفسها ، فقالت : لا تفعل، فإن أبا جندب إن يعلم بهذا يقتلك ، فأبى أن ينزع ، فكلَّمت أبا جندب بذلك

فقال : إني مُخبر القوم أني أذهب إلى الإبل ، فإذا أظلم الليل جئت ، فدخلت البيت ، فإن جاءك ، فأدخليه عليَّ ، فودَّع أبو جندب القوم ، وأخبرهم أنه ذاهب إلى الإبل ، فلما أظلم الليل جاء فكمن في البيت ، وجاء أبو السيَّارة ، وهي تطحن في ظلها ، فراودها عن نفسها ، فقالت : ويحك ، أرأيت هذاالأمر الذي تدعوني إليه ، هل دعوتك إلى شيء منه قط ؟ .

قال : لا ، ولكني لا أصبر عنك .

قالت : ادخل البيت حتَّى أتهيأ لك ، فلمَّا دخل البيت أغلق أبو جندب الباب ثم أخذه فدقَّه من عنقه إلى عجب ذنبه ، فذهبت المرأة إلى أخي أبي جندب ، فقالت : أدرك الرجل ، فإن أبا جندب قاتله ، فجعل أخوه يُناشده ،

---

(١) « المنتظم » لابن الجوزي (٩/ ٨٠ - ٨٢) .

فتركه ،حمله أبو جندب إلى مدرجـة الإبل فألقاه ، فكان إذا مرَّ به إنسان ، قال له : ما شـأنك ؟ ، فيقول : وقـعت من بكر (جمل) فحطمني ، وبلغ الخـبر عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، فأرسل إلى أبي جندب ، فأخـبره بالأمر على وجهه ، فأرسل إلى أهل المرأة ، فـصدقوه ، فجلد عـمر أبا السيّـارة مئة جلـدة وأبطـل ديته (١) .



(١) « روضة المحبين »(ص٣٩٤) .

مواقف رائعة في إطفاء نار العشق

المهدي والبدوي :

خرج المهدي العبَّاسي إلى الحج حتَّى إذا كان بزبالة جلس يتغدَّى ، فأت بدوي فناداه : يا أمير المؤمنين إني عاشق ، ورفع صوته ، فقال للحاجب : ويحك ما هذا ؟! ، قال : إنسان يصيح : إني عاشق ، قال : أدخله ، فأدخلوه عليه ، فقال : من عشيقتُك ؟ قال : ابنة عمي ، قال : أو لها أب ؟ قال : نعم، قال : فما له لا يُزوّجك إيَّاها ؟ قال : هاهنا شيء يا أمير المؤمنين ، قال: ما هو ؟ ، قال : إني هجين [1] ، قال له المهدي : فما يكون ؟ إنه عندنا عيب، فأرسل في طلب أبيها ، فأتي به ، فقال له المهدي : هذا ابن أخيك ؟ قال : نعم ، قال : فلم لم تُزوجه كريمتك ؟ فقال له : مثل مقالة ابن أخيه ، وكان من ولد العبَّاس عنده جماعة ، فقال لامهدي : هؤلاء كلهم بنو العبَّاس وهم هُجْن ، ما الذي يضرهم من ذلك ؟ قال : هو عندنا عيب ، قال المهدي : زوّجه إيَّاها على عشرين ألف درهم ، عشرة آلاف للعيب ، وعشرة آلاف مهرها، قال : نعم ، فحمد الله وأثنى عليه وزوَّجه إيَّاها ، فأُتي ببدرتين فدفعهما إليه ، فأنشأ الشاب يقول :

أتبعت ظبية بالغلاء وإنَّما ... يُعطى الغلاءُ بمثلها أمثالي
وتركت أسواق القباح لأهلها ... إنَّ القباح وإن رخصن غوالي [2]



(١) الهجين : الذي أمه أَمَة ليست عربية .
(٢) « روضة المحبين » (ص ٣٧٠).

عمر بن أبي ربيعة والرجل العاشق :

كان عمــر ابن أبي ربيعة قد ترك الشعر ورغــب عنه ، ونذر على نفسه بكل بيت يقــوله هدي بدنة ، فــمكث كــذلك حــينًا ، ثــم خرج ليــلة يُريد الطَّواف بالبــيت، إذ نظر إلى امرأة ذات جــمال تطــوف ، وإذا رجل يتلوها كلما رفــعت رجلها وضع رجله مــوضع رجلها ، فجــعل ينظر إلى ذلك من أمرهمــا ، فلمَّا فرغت المرأة من طوافها تبعها الرجل هــنيهة ، ثم رجع ، فلما رآه عمر وثب إليه وقال : « لتُخبرني عن أمرك » قال : نعم هذه المرأة التي رأيت ابنة عمي وأنا لها عاشق وليس لي مــال ، فخطبتــها إلى عمــي فرغب عني ، وسألني المهــر ما لا أقدر عليه ، والذي رأيتَ هو حظِّي منها ، وما لي من الدنيا أمنية غيرها ، وإنَّما ألقاها عــند الطَّواف ، وحظِّي منها مــا رأيتَ من فعلي ، فــقال له عــمر : ومَنْ عمُّكَ ؟ قــال : فلان بن فلان ، قال : انطلق مــعي إليه ، فانطلقــا فاستخــرجه عمر ، فخرج مُبادرًا ، فقال : ما حاجتك يا ابن أبي ربيعة ؟ قال : تُزوِّج ابنتك فلانة من ابن أخيك فلان ، وهذا المهر الذي تسأله يُساق إليك من مالي ، قال : فإني قد فعلــت ، قال عمر : إني أُحب ألا أبرح حتَّى يجتــمعا ، قال : وذلك أيضًا ، قال : فلم يبــرح حتَّى جمعهــما جميعًا ، وأتى مــنزله ، فاستلقى على فراشه ، فجعل النوم لا يأخذه ، وجعل جوفــه يجيش بالشعر ، فأنكرت جاريته ذلك ، فجعلت تســأله عن أمره وتقول : ويحك ما الذي دهاك ، فلمــا أكثرت عليه جلس وأنشد :

تــقــــول وليــــــدتي لمـا رأتني ... طربت وكنـت قـد أقـصـرت حـينا
أراك اليـــوم قــد أحـدثـت شـوقًـا ... وهـاج لك الـبـكـاء داءً دفــــــينـا
بربّـك هل أتـاك لهــــا رســــول ... فــشـاقك أم رأيت لهـا خـدينا ؟
فـــقلـت : شكا إلـيَّ أخ مـــحبٌّ ... كــبــعـض زمـانـنا إذ تعلـمـينا
فـــعــــدَّ علي مـــا يلقـى بهند ... فـــوافق بعـض مـــا كـنا لـقـــينا

وذو القلب المصاب وإن تعزّى يهيّج حين يلقى العاشقينا
وكم من خلة أعرضت عنها لغير قلبي وكنت بها ضنينا
رأيت صدودها فصددت عنها ولو هام الفؤاد بها جنونا [١]

خالد القسري وتفقده للسجن :

عرض خالد بن عبد الله القسري سجنه يومًا ، وكان فيه يزيد بن فلان البجلي ، فقال له خالد : في أي شيء حُبست يا يزيد ؟ قال : في تهمة – أصلح الله الأمير – قال : أفتعود إن أطلقتك ؟ قال : نعم ، وكره أن يعرض بقصّته لئلا يفضح معشوقته ، فقال خالد : أخطروا رجال الحي حتّى تُقطع يده بحضرتهم ، وكان ليزيد أخ ، فكتب شعرًا ووجّه به إلى خالد :

أخالد قد أعطيت في الخلق رتبة وما العاشق المسكين فينا بسارقِ
أقرَّ بما لم يأته المرء إنه رأى القطع خيرًا من فضيحة عاشقِ
ولولا الذي قد خفت من قطع كفّه لألفيت في شأن الهوى غير ناطقِ
إذا بدت الرايات للسبق في العلا فأنت ابن عبد الله أول سابق

فلمَّا قرأ خالد الأبيات علم صدق قوله ، فأحضر أولياء الجارية ، فقال : زوّجوا يزيد فتاتكم ، فقالوا : أما وقد ظهر عليه ما ظهر فلا ، فقال : لئن لم تُزوّجوه طائعين لتُزوجنّه كارهين ، فزوجوه ، ونقد خالد المهر من عنده [٢] .



---

(١) « روضة المحبين » (ص٣٧٠) .
(٢) المصدر نفسه (ص٣٧٤ ، ٣٧٥) .

الأميرة زبيدة وهي في طريق مكَّة :

قرأت زبيدة بنت أبي جعفر في طريق مكَّة على حائط :

أمــا في عبـــاد الله أو في إمـــائه — كريم يُجلِّي الهمَّ عن ذاهب العقلِ ؟
له مـــقلة أمـــا المآقي فـــقـــرحـــة — وأمـا الحـشـا فـالنار منـه على رِجْلِ

فنذرت أن تحتـال لقائلهمـا حتَّى تجمع بيـنه وبين من يحبه ، قـالت : فإني لبمزدلفة إلا إذْ سمعت من يُنشدهما، فاستدعيت به فزعم أنَّه قالهما في بنت عم له وقد حلف أهلها ألا يزوجوها منه، فـوجَّهت إلى الحي، وما زالت تبذل لهم المال حتَّى زوَّجوه ، وإذا المرأة أعـشق من الرجل ، فكانت زبيدة تعدّه في أعظم حسناتها ، وتقول : ما أنا بشيء أسرّ مني بجمعي بين ذلك الفتى والفتاة [١] .

أسماء بن خارجة والشاب :

أسماء بن خـارجة الفزاري الكوفي رأى يومًا شـابًا على باب داره جالسًا ، فسأله عن قعوده على بابه فقال حاجـة لا أستطيع ذكرها ، فألحَّ عليه ، فقال : جارية رأيتها دخلت هذه الدار ، لم أرَ أحسن منهـا ، وقد خطفت قلبي معها ، فأخذ بيـده وأدخله داره وعرض عليه كل جارية عنده حـتَّى مرَّت تلك الجارية ، فقال : هذه .

فقـال له : اخرج فـاجلس على الباب مكانك ، فـخرج الشـاب ، فجلس مكانه ، ثم خرج إليه بعد ساعة والجارية معه وقد ألبسها أنواع الحليّ .

وقال له : ما منعني أن أدفعـها إليك وأنت داخل الدار إلاَّ أن الجارية كانت لأختي ، وكـانت ضنينة بها ، فـاشتريتـها لك منهـا بـ (٣٠٠٠) وألبستـها هذا الحليّ ، فهي لك بما عليها ، فأخذها الشاب وانصرف [٢] .

---

(١)« روضة المحبين » (ص٣٧٤ ، ٣٧٥) .
(٢)« المنتظم » (٦/ ٢٣٦)، وانظر « البداية والنهاية » لابن كثير (٩/ ٤٣).

الوزير ابن هبيرة والجارية :

عُرِضت على الوزير يحيى ابن هبيرة (ت٥٦٠هـ) - رحمه الله - جارية فائقة الحسن ، وظهر له في المجلس من أدبها وحسن كتابتها وذكائها وظرفها ما أعجبه ، فأمر فاشتريت بمائة وخمسين دينارًا ، وأمر أن يُهيأ لها منزل وجارية ، وأن يحمل لها من الفرش والآنية والثياب ما تحتاج إليه ، ثم بعد ثلاثة أيَّام جاء الذي باعها وشكا له ألم فراقها ، فضحك وقال له :

لعلَّك تُريد ارتجاع الجارية ؟ قال : إي والله ، وهذا الثمن بحاله لم أتصرف فيه وأبرزه ، فقال الوزير : ولا تصرفنا في المثمَّن ، ثم قال لخادمه : ادفع إليه الجارية وما عليها ، وجميع ما في حجرتها ، ودفع إليه الخرقة التي فيها الثمن ، وقال : استعينا به على شأنكما ، فأكثرا من الدعاء له ، فأخذها وخرج [(١)] .

اشترى جارية بجميع ماله :

حُكِيَ أنَّ رجلاً اشترى جارية كانت تُحسن القرآن والشعر وغيره ، فأحبَّها حبّاً شديدًا ، وأنفق عليها ماله كله حتَّى أفلس ولم يبقَ له شيء سوى هذه الجارية .

فقالت له الجارية : قد أرى ما بك من قلّة الشيء ، فلو بعتني وانتفعت بثمني صلح حالك ، فباعها لعمر بن عبيد الله بن معمر بن عثمان التميمي أحد الأجواد والأمراء في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان ، وهو يومئذ أمير البصرة، بمائة ألف درهم ، فلمَّا قبض المال ندم وندمت الجارية ، فأشارت تُخاطب سيدها بأبيات شعر وهي :

هنيئًا لك المال الذي قد أخذته	**ولم يبق في كفي إلا تفكُّري**
أقول لنفسي وهي في كرب عيشة	**أقلّي فقد بان الخليط أو اكثري**
إذا لم يكن في الأمر عندك حيلة	**ولم تجدي بُدّاً من الصبر فاصبري**

---
(١) « شذرات الذهب » لابن العماد (٤/١٩٦) .

فأجابها سيدها :

ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن لفرقتنا شيء سوى الموت فاصبري
أوي بحزن من فراقك موجع أُناجي به قلبًا طويل التذكُّرِ
عليك سلام لا زيارة بيننا ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

فلمَّا سمعهما الأمير قال : والله لا فرقت بين محبين أبدًا ، ثم أعطاه المال وهو مائة ألف والجارية ، لمَّا رأى من توجعهما على فراق كلٍّ منهما صاحبه ، فأخذ الرجل الجارية وثمنها وانطلق (١) .



(١) « المنتظم »(٦/٢٤١) ، وانظر « البداية والنهاية »(٩/٤٦) .

خاتمة

وإلى هنا يتوقَّف اليراع عن الكتابة فيما يسَّره الله - وله كل حمد وشكر - من جمع هذه الرسالة ، أسأل الله أن ينفعني بها وكل قارئ قرأها ، وقد حصل الفراغ من كتابتها - ما عدا المقدمة - بين مغرب وعشاء ليلة الثلاثاء ١٣ من جمادى الآخرة سنة (١٤٢١هـ) الموافق (١٢/٩/ ٢٠٠٠ م) بيد جامعها الفقير إلى الله راجي عفوه وغفرانه / عبد الرحمن بن عبد القادر المعلمي .

والحمد لله أولاً وآخرًا عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا .

كتبه



المراجع

{ ١ } « إرشاد الأريب » ياقوت الحموي .

{ ٢ } « أضواء البيان في توضيح القرآن بالقرآن » محمد الأمين الشنقيطي .

{ ٣ } « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » شيخ الإسلام ابن تيمية .

{ ٤ } « بحوث في قصص القرآن » السيد عبد الحافظ عبد ربه ، دار الكتاب اللبناني - بيروت .

{ ٥ } « البداية والنهاية » ابن كثير .

{ ٦ } « تفسير سورة يوسف » محمد رشيد رضا .

{ ٧ } « تفسير القرآن العظيم » عماد الدين ابن كثير .

{ ٨ } « التفسير القيّم لابن القيّم » محمد أويس الندوي .

{ ٩ } « التفسير الكبير » فخر الدين الرازي .

{ ١٠ } « تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان » عبد الرحمن ناصر السعدي .

{ ١١ } « الجامع لأحكام القرآن » القرطبي .

{ ١٢ } « حياة يوسف » محمود شلبي .

{ ١٣ } « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » الحافظ ابن حجر العسقلاني .

{ ١٤ } « دعوة الرسل إلى الله تعالى » محمد أحمد العدوي .

{ ١٥ } « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني » محمود الألوسي .

{ ١٦ } « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » ابن القيّم .

{ ١٧ } « سنن أبي داود »

{ ١٨ } « **سنن الترمذي** » .

{ ١٩ } « **السياسة الشرعيّة في إصلاح الراعي والرعيّة** » ابن تيميّة .

{ ٢٠ } « **سيرة عمر بن عبد العزيز** » ابن الجوزي .

{ ٢١ } « **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** » ابن العماد الحنبلي .

{ ٢٢ } « **صحيح البخاري** » .

{ ٢٣ } « **صحيح مسلم** » .

{ ٢٤ } « **في ظلال القرآن** » سيد قطب .

{ ٢٥ } « **الفتن في حياة يوسف** عليه السلام » عبد الحميد البلالي .

{ ٢٦ } « **القصص القرآني** » عبد الكريم الخطيب .

{ ٢٧ } « **الكشاف** » الزمخشري .

{ ٢٨ } « **مجموع الفتاوى** » ابن تيميّة .

{ ٢٩ } « **مؤتمر تفسير سورة يوسف** » عبد الله العليمي الغزي الدمشقي - دار الفكر .

{ ٣٠ } « **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** » ابن الجوزي .

{ ٣١ } « **الموافقات** » الشاطبي .

{ ٣٢ } « **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** » إبراهيم البقاعي .

{ ٣٣ } « **وحي القلم** » الرافعي .

{ ٣٤ } « **يوسف بن يعقوب عليهما السلام** » أحمد عز الدين .

{ ٣٥ } « **يوسف** عليه السلام ، **نظرات في التفسير** » عبد الحميد كحيل داود .

{ ٣٦ } « **يوسف في القرآن** » أحمد ماهر البقري .

الفهرس




تم بحمد الله